المضامين السياسية لقوانين الياسا وأثرها على قيام إمبراطورية المغول

م. د. محمد خالد عبد البرهاوي
جامعة الموصل / كلية الآداب
قسم التاريخ

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

كان جنكيز خان سياسياً وإدارياً محنكاً بِقَدَرِ ما تمتع به من دهاءٍ عسكريٍ. وتتمثل عبقريته في الإدارة والحكم في قوانين الياسا التي عكست مجملَ أفكاره السياسية، وعملت عمل الدساتير الوضعية في الدول الحديثة، ومثلت مرجعاً فكرياً لنشاط المغول السياسي. فقد لعبت هذه القوانين دوراً فاعلاً في تأسيس إمبراطورية المغول، ذلك أنَّ تحاكمهم إلى قانون موحد في شؤونهم السياسية والحياتية، يَدِيْنُ له الجميعُ، ويحضى باحترامِ الحاكم والمحكوم، أتاح لهم فرصةَ توحيدِ صفوفهم، ونبذ عواملِ الفرقةِ والشِقاق، وتحقيق الوحدة السياسية، وتوجيه جهودهم نحو التوسع والغزو على حسابِ الشعوبِ والمناطقِ المجاورة. وإذا كان الجيش أحَدَ أهمّ أسس قيامِ دولة المغول، فانّ الياسا اشتملت على عددٍ من البنود التي ساهمت بشكلٍ مباشرٍ في بناء جيشٍ قويٍّ، عوّل عليه المغولُ في حماية دولتهم، وتوسيعِ أراضيهم. كما ضمت الياسا العديدَ من الأحكام التي عالجت قضايا نظامِ الحكمِ والسلطةِ بشكلٍ مباشرٍ، فحددت صلاحياتِ الحاكمِ، وأَوْجُهَ خَلْعِهِ، وطرقَ تداولِ السلطة، وعِلاقةَ الحاكمينَ بالمحكومين، وطبيعة العلاقات الدولية مع الدول المجاورة. كما كان للياسا اثرٌ في تحقيق الأمنِ والاستقرارِ عند المغولِ والشعوبِ الخاضعةِ لهم، وذلك بفضل العقوباتِ الصارمة التي فرضتها على المخالفين للنظام، ثم بِفعل السياسةِ الدينيةِ التي قررتها، التي ساعدت المغولَ على سياسة مختلف الشعوب ذات الانتماءاتِ الدينية المختلفة، الأمر الذي كان له أثرُهُ في إحكام سيطرتهم عليها.

أولا . تعريف الياسا:

وردت الإشارةُ إلى الياسا في المصادر القديمةِ بألفاظٍ مختلفةٍ مثل: "الياسا"[١]، و"الياسة"[٢] و"اليَسَق"[٣]، و"اليُسَاق"[٤] و"الياسق"[٥] و"السياسا"[٦]. وجميع هذه الألفاظ يُقصَدُ بها الكلمة المغولية التي تأتي بمعنى القاعدة أو القانون أو الحكم الذي يصدرهُ الملكُ أو الأميرُ[٧]. وهذا التباين في المعنى يعود إلى اختلاف السياقات التي ترد فيها الكلمة، فقد ترد الكلمة للدلالة على مرسوم معين يعنيه الكاتب لكننا نجهله[٨]. وكان الجويني (ت٦٨١هـ/١٢٨٢م) يَعْني بالياسا "قانون جنكيز خان" (ت٦٢٤هـ/١٢٢٥م)[٩]. وقد عرّفها ابنُ كثيرٍ (ت٧٧٤هـ/١٣٧٢م) بأنها: "عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها . جنكيز خان . مِنْ شرائعَ شتى: من اليهودية والنصرانية والملّة الإسلامية وغيرها، وفيها الكثيرُ من الأحكام أخذها من مجرد نظرهِ وهواهُ فصارت في بنيه شرعاً متبعاً"[١٠]. وقال عنها القلقشندى (ت٨٢١هـ/١٤١٨م): "وهي قوانين خمّنها . جنكيز خان . من عقله وقرّرها من ذهنه، رتّب فيها أحكاماً، وحدّد فيها حدوداً ربما وافق القليلُ منها الشريعة المحمدية، وأكثرُها مخالفٌ لذلك، سماها الياسة الكبرى"[١١]. وقد أنفرّد أبن تغري بردي (ت٨٧٤هـ/١٤٦٩م) في تقديمِ تعريفاً لغوياً للياسا، فقال: "وأصل لفظة اليَسَق: سِى يَسَا، وهي لفظة مركبة من كلمتين، صدر الكلمة : سِى بالعجمي، وَعَجُزُهَا يَسا بالتركي، لان سِى بالعجمي ثلاثة، ويَسا بالمُغلي (كذا في الأصل) الترتيبُ فكأنه قال: التراتيبُ الثلاثةُ، وسبب هذه الكلمة أن جنكيز خان ملك المُغل (كذا) كان قسم ممالكه في أولاده الثلاث، وجعلها ثلاث أقسام، وأوصاهم بوصايا لم يخرجوا عنها الترك إلى يومنا هذا مع كثرتهم وأختلاف أديانهم فصاروا يقولون: سِى يَسَا ويعني التراتيب الثلاثة التي رتبها جنگز خان"[١٢]. وقد أشار ديفيد آليون إلى أنّ التفسير الذي قدمه ابن تغري بردي غير معقول، كما انّه يفتقر إلى الدليل[١٣]. وفي القاموس التاريخي لإمبراطورية المغول عُرِّفت الياسا بأنها مجموع القوانين والتشريعات المنسوبة لجنكيز خان، والتي يعتقد انهل صياغة أخرى للقوانين والأعراف والعادات التي كانت سائدة قبل زمن جنكيز خان[١٤]، أما بالنسبة إلى المغول فالياسا عندهم هي تلك القوانين المكتوبة التي وضعها جنكيز خان والتي تؤكد على زعامته لقبائل منغوليا والتي سبقت الحملات المغولية لغزو الصين وآسيا الوسطى[١٥].

يظهر من خلال هذه التعريفات أنّ معظمها يشير إلى أن جنكيز خان هو الذي وضع قوانين الياسا، غير أنَّ ذلك لا ينفي أنّ حياة المغولِ رغم بدائيتها وبساطتها اقتضت أن تكون لهم قبل جنكيز خان مجموعةٌ من الآداب والتقاليد تعارفوا عليها[١٦]، ويبدو أنَّ هذه الآداب والعادات كانت النواة التي ارتكز عليها جنكيز خان لوضعِ الياسا، قال الجويني: "حين منح اللهُ تعالى جنكيز خان العقل والمعرفة وفاق بهما أقرانه، ووهبه القدرة والتسلط على ملوك الدنيا، شرع يبحث عن عادات الأكاسرةِ والجبابرةِ، ورسومِ الفراعنةِ والقياصرةِ. ثم اخذ يقتفي في ذات نفسه عن قانون وعُرفٍ يَحْفظُ بهما نظام مملكته، وينتصرُ على خصومه؛ يجمعهما من العادات ويستنبطهما من الخاطر"[١٧]، فأعاد النظر في هذه العادات وردّ بعضها وقبل معظمها، وأضاف إليها بعض الأحكامِ والقواعدِ[١٨]، معتمدا على "قوة ذهنه وحسّه، واستدراك الأصلح من قبل نفسه"[١٩] "فما كان يقبله العقل أمر جنكيز خان بإثباته"[٢٠]. وهذا يدل على أنّ العديد من بنود الياسا وجدت قبل جنكيز خان، وانّ المغول كانوا يتداولونها قبله على شكل عاداتٍ وتقاليدَ شفهيةٍ، وأنّه لما تولى السلطة أخذَ هذه الأعراف وأضاف إليها وحذف منها بما ينسجم مع أهدافه في إقامة دولة كبيرة.

ومن أجلِ أنْ تحافظ الياسا على بنودها في منأى عن التغيير، وفي سبيل تسّهيل وصول الأمراء إليها، أمر جنكيز خان بأنْ تُدوّنَ هذه البنود، وذلك لكي تكتسب صفةً رسميةً، وتخرج من إطار التداول الشفهي. ربما كان ذلك بعد أن أصدرها بشكلها النهائي في سنة ٦٠٣هـ/١٢٠٦م، عقب انتخابه خاناً أعظمَ[٢١]. ولكن "ولما لم يكن لقوم التتار خطٌّ يكتبون به فقد أمر ـ جنكيز خان ـ أن يتعلم أطفال المغول الخط الأويغوري[*]، وأن تدون هذه القوانين على طوامير، ودعيت " كتاب القواعد الكبير" وحُفِظَ في خزائن الأمراء، حتى إذا نُصِّب أحدهم أميراً أو قائداً أو شُغِل بتدبير جزء من الدولة رجع إلى هذه الطوامير، وانتهج مسلكها في بناء البلاد أو تدمير مدن الأعداء"[٢٢]. وبهذا أصبح لهذه القوانين صفةٌ رسميةٌ[٢٣]. ومن هنا يبدو حرص جنكيز خان على أنْ تكون أحكامُ الياسا في متناول أمرائه وخلفائه، ليسّهل عليهم مراجعتها واسْتفتاؤها. كما أنه كان حريصا على أن تُدارَ مملكته من بَعده وفق رؤيته السياسية التي أقرها في الياسا.

وعلى الرغم من أن الياسا قد دوّنت في عهد جنكيز خان، كما مر ذكره، غير أَنّه لم يصل إلينا كتابٌ خاصٌ عنها، ولم ترد أيّةُ إشارةٍ عن أحدٍ من المؤرخين تفيد بأنه اطلع على نسخة من كتاب الياسا[٢٤]، ولذلك تميزت الإشارات الواردة عنها بالندرة والقلة[٢٥]، وأقدم من نقل فقراتٍ عنها هو الجويني، إذ خصّص لها فصلاً بعنوان: "ذكرُ القواعد التي وضعها جنكيز خان والياسا الذي قنّنه"، ولم يُشر في هذا الفصل إلى مصدر معلوماته عنها، وقد ركّز في هذا الفصل على الجانب العسكري من بنود الياسا[٢٦]، وعلى الرغم من أنه أشار إلى بعض البنود الأخرى عرضاً في مواضع متفرقة من كتابه[٢٧]، إلا أنّه لم يتوسع في إيراد بنودها، يدل على ذلك الإشارة التي وردت في نهاية فصله، حيث ذكر فيها أن "أمثال هذه القوانين كثير، ويتطلب إثباتها كلها حيزاً كبيراً، فاقتصرت على ما ذكرت"[٢٨]. وهذا الأمر يدل على أنّ الكثير من فقرات الياسا لم تصل إلينا.

كما أورد أبن فضل الله العمري (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م) إشاراتٍ قيمةٍ عن الياسا، وبالرغم من أنه، وفي أكثر من موضع، صرّح بالنقل عن الجويني[٢٩]، غير أن بعض المعلومات التي قدمها عن الياسا لم نجد لها أصلاً عند الجويني، وهذا الأمر يحيل إلى الاعتقاد بأن العمري لم يقتصر على الجويني في استقصائه لمعلوماته عن الياسا، وربما اعتمد على بعض الروايات الشفهية التي كانت متداولة عند بعض أبناء عصره، فقد كان الأخوان اوتامش الاشرفي (ت٧٣٦هـ/١٣٣٦م)[٣٠]، وارقطاي (ت٧٥٠هـ/١٣٤٨م)[٣١]، "في لسان الترك واللسان القبجاقي فصيحان، وكان يرجع إليهما في الياسا التي هي بين الأتراك"[٣٢]. وكان معروفا عن اوتامش انه "يعرف بالمُغُليّ لساناً وكتابةً ويدري آداب المُغُل، ويحكم في بيت السلطان بين الخاصّكيّة باليسق الذي قرّره جنكيز خان، وكان يعرف سيرة جنكيز خان ويطالعها ويراجعها ويعرف بيوت المغل وأصولهم ويستحضر تواريخهم ووقائعهم، وكان إذا جاء من تلك البلاد كتاب إلى السلطان بالمغلي يكتب الجواب عنه بالمغلي"[٣٣].

إنّ أوسع الفقرات التي وصلتنا عن الياسا نقلها المقريزي (ت٨٤٥هـ/١٤٤١م) في كتابه المواعظ والاعتبار، وعلى الرغم من أنّه لم يفصح عن مصادره التي اعتمدها في حديثه عنها، إلا انه من الواضح بأن أبن فضل الله العمري كان أهم مصادر المقريزي عن الياسا. وقد

أشار في معرض حديثه عنها إلى أن العبد الصالح أبا هاشم أحمد بن البرهان (ت٨١٩هـ/١٣١٩م)[٣٤]، اخبره بأنه "رأى نسخة من الياسة بخزانة المدرسة المستنصرية ببغداد"[٣٥]. وهذه إشارة واضحة إلى وجود نسخة من كتاب الياسا في بغداد خلال عهد المقريزي. إلا أن هذا لا يعني أن ابن البرهان يُعد أهمَّ مصادر المقريزي عن الياسا، فلم يُصرّح المقريزي بشيء يفيد هذا المعنى، وإشارة المقريزي تفيد بأن ابن البرهان "رأى نسخة من الياسة بخزانة المدرسة المستنصرية ببغداد" وهذه الإشارة لا تعني انه فتحها فضلا عن أن يكون قد قرأها. ولا يوجد في سيرة ابن البرهان ما يفيد بأنه كان يُجيد غير اللغة العربية، فلم يثبت أنه كان يعرف المغولية أو الفارسية أو حتى الأويغورية التي دوّنت بها الياسا في عهد جنكيز خان، وليس هناك دليل على أن الياسا في ذلك الوقت قد ترجمت إلى العربية[٣٦]. وبذلك لا يستقيم الاعتقاد بأن المقريزي أستند على ابن البرهان في معلوماته عن الياسا[٣٧]. ومهما يكن من أمر، وعلى الرغم من السِعة النسبية في المعلومات التي أوردها المقريزي عن الياسا، فقد ركّز في حديثه عنها على مقدار تأثر نظم دولة المماليك بها.

ثانيا: الأسباب السياسية لظهور قوانين الياسا:

كانت القاعدة التي ترتكز عليها سياسة جنكيز خان تقوم على أساس أن "لكلّ عملٍ قانوناً، ولكل مصلحةٍ دستوراً، ولكل جرمٍ حداً"[٣٨]. وهذا الأمر يشير إلى وعيه العميق لأهمية الدساتير والقوانين في تأسيس الدول وقيام الإمبراطوريات. ولذلك فقد كان من رأيه، وهو بصدد تأسيس دولته، أنّه لا يمكن جمع كلمة قبائل المغول المتعطشين للدماء إلا بتشريع قانون يلتفون حوله، وينزلون جميعاً على حكمه، يجمع كلمة القبائل الخاضعة، ويكبحُ جماح أُمرائها[٣٩]. فقد وجد جنكيز خان بثاقب فكره أَنَّه إذا ترك أتباعه وشأنهم يحيون حياتهم القديمة بغير قانونٍ مُلزمٍ، فإنهم يعودون إلى ما كانوا عليه من الفوضى، وقتل بعضهم البعض، والتطاحن من أجل الأسلاب والمراعي[٤٠]. ومن هنا يظهر بأنّ الرغبة في توحيد القبائل، وجمع المغول على قانون واحد، وقيادة واحدة، كانت من الدوافع المهمة لإصدار الياسا. وبما أنَّ جنكيز خان هو الذي قنَّنَ الياسا، ووضع أو أقرّ معظم بنودِها، فلا بد أنّ تكون للتجارب والشدائد التي عاشها، وما صادفه في حياته من متاعب، وما قام به من حروب، أثرٌ في تقدير أحكامها[٤١]، ولا بد والأمر

كذلك من أن تشتمل الياسا على ما يعوزه من القواعد والأحكام التي تخدم هدفه في إقامة دولته. وربما لهذا السبب ظهرت عدة تعديلات للياسا طوال حكم جنكيز خان، فقد أُعيد النظر في أحكامها بعد صدورها الأول سنة ٦٠٣هـ/ ١٢٠٦م، وذلك في الأعوام ٦١٥هـ/ ١٢١٨م، و٦٢٣هـ/١٢٢٥م[٤٢]. ولا ريب أن هذه التعديلات اقتضتها حاجات إمبراطوريته الموسعة[٤٣]، وهذا يعلل سبب الحضور السياسي القوي المميّز.

مما سبق يبدو جليا أنَّ الهدف الذي ابتغاه جنكيز خان من وضع هذه القوانين هو توحيد المغول تحت قيادةٍ واحدةٍ، والحفاظ على نظام مملكته والانتصار على خصومه، وتوفير التشريعات اللازمة لذلك، بما يؤدي في النهاية إلى تكوين إمبراطورية واسعة. ومن الطبيعي والأمر كذلك أن تحتل المرامي السياسية مساحة واسعة من هذه القوانين، سواءٌ أكان ذلك بشكل مباشر أم غير مباشر، وذلك كي تكون صالحة لتأدية المهمة السياسية التي أُنشِأت من اجلها.

ثالثا: المضامين السياسية لقوانين الياسا:

كانت الدوافع السياسية .كما مر ذكره. حاضرة بشكل مباشر في نشأة الياسا، الأمر الذي منحها طابعاً سياسياً مميزاً، فلا عجب والأمر كذلك أن يكون لها ابلغُ الأثر في توجيه الحياة السياسية عند المغول. قال الجويني حاكياً عن جنكيز خان: "وكلُّ من قابله أو قاتله استقبله بالأحكام التي وضعها والقوانين التي قننها، آمراً بها أولاده وأشياعه وأجناده"[٤٤]. وهذه الإشارةُ تدلُّ على أنَّ السياسة التي اتبعها جنكيز خان كانت مستوحاةً من هذه القوانين، وأنّ أولادَهُ وأمراءهُ وأجنادَهُ كانوا ملتزمين العمل بها.

إن الأهمية السياسية التي ميّزت الياسا ناتجةٌ عما تحتويه من مضمونٍ سياسيٍ، أدى دوره في العديد من النواحي السياسية، بَدْءً من تأسيس الدولة، ومروراً بوضع أسس نظام الحكم والسلطة، ثم تحديد طبيعة العلاقات الدولية، وانتهاءً بتقنين كل ما يساهم في الحفاظ على الأمن والاستقرار. وكما هو مبينٌ في أدناه.

١/ في تأسيس الدولة:

كان لجنكيز خان من زوجه يسونجين بيكي أربعةُ أولادٍ "أُعِدوا لعظائم الأمور وجلائل الأخطار. وكانوا بمثابة قاعدة الملك والإيوان الخاني، وحملة أركان الحكم من أطرافه الأربعة. وقد اختار جنكيز خان لكل واحد منهم أمراً مخصوصاً في الحكم: فالأكبر هو توشي، مهمته الصيد والطرد، والأصغر منه جغتاي أمره بتنفيذ قانونه . الياسا . وسياسة وعقاب المقصر في ذلك، ثم أوكتاي واختاره عقل الملك ومدبره وصاحب الرأي فيه، وتولي خصه بترتيب الجيوش وإعداد الجنود"[٤٥]. وهذا التقسيم يشير إلى أن قواعد الملك عند جنكيز خان كانت أربعة، وأنّ الياسا كانت إحدى هذه القواعد، ودستورها وقاعدتها الفكرية والقانونية. فقامت مقام الدساتيرِ في الدول الحديثة، ومثلت حجرَ الزاوية الأهمَّ في تأسيس دولة المغول. غير أن الياسا لم تكن إحدى قواعد الحكم فحسب، فقد كانت في العديد من بنودها تتجه نحو تأسيس اوتأمين قيام القواعد الأخرى، فتناولت في بنودها قضية الصيد، وإعداد الجيش والجند، وسبل الحفاظ على قواعد الياسا. وكل ما يساعد على إقامةِ أسسِ الدولة القوية.

تتركز أهمية الياسا في تأسيس دولة المغول في بناء الوحدة السياسية بين قبائل المغول، وفي تكوين جيشٍ قويٍّ. وكما هو مفصّل في أدناه.

أ. تحقيق الوحدة السياسية:

إن أهمَّ الانجازات التي حققها جنكيز خان في حياته السياسية توحيدهُ لقبائل المغول تحت قيادةٍ موحدةٍ، فقد كانت قبائل المغول قبل ذلك مختلفين و"لم يكن لهم حاكم يجمعهم، كانوا مفرّقين قبائل، لكل قبيلة أو قبيلتين رئيسٌ، ولم يكن هؤلاء الرؤساء في سلم فيما بينهم، وعلى العكس كانت الخصومة والبغضاء تفرقهم"[٤٦]. وعلى الرغم من أنّه كان لكل قبيلة ملك أو أمير، فان أفراد هذه القبيلة لم يخضعوا له دائما، ولم يأتمروا بأمره[٤٧]. وقد تجلّت عبقرية جنكيز خان في توحيد قبائل المغول فيما اشتملت عليه الياسا من أحكامٍ وقواعدَ، ركّزت في معظمها على الخضوع لجنكيز خان، والاتحاد في قبيلة واحدة، والعقاب الصارم لكل مُخالف[٤٨]. فبعد أن عاين جنكيز خان بنفسه أوضاع الانقسام والتشرذم التي كانت عليها قبائل

المغول، سعى حثيثاً نحو تقنين كُلّ ما يساعد على رفعِ حالة الصراع بين هذه القبائل، وتوحيدهم تحت قيادة موحدة، ولذلك جاءت العديد من بنود الياسا في خدمة هذا الاتجاه.

وفي هذا الصدد يُشار إلى أن جنكيز خان فرض على كافة المغول الخضوع لقانون الياسا حصراً، وهي خطوة مهدت الطريق أمام المغول لتحقيق الوحدة السياسية والاجتماعية فيما بينهم. ذلك لأن توحّيد المغول في إتباع الياسا شريعةً لهم، كما أراد لها جنكيز خان، يعني وجود قدرٍ من التوجه المشترك بين المغول كافة في تقديم الولاء والطاعة لنظامٍ سياسيٍّ واحدٍ.

وفي خطوةٍ موازيةٍ تهدف إلى تحقيق الوحدة بين المغول فقد حرص جنكيز خان على نسخ كل القوانين والأعراف التي كانت سائدةً عند المغول، التي تتعارض مع أحكام الياسا، وذلك لكي ترتبط جميع أقاليم دولته في نظام سياسي وقانوني موّحد[٤٩].

ومن الأمور التي قادت نحو تحقيق الوحدة بين المغول تأكيدُ بعض بنود الياسا على وجوب الحفاظ على السلطة المركزية، والتوكيدُ على أهمية طاعة الخان، فقد أشارت الياسا إلى أن "أكبر الأمراء إذا أذنب وبعث إليه الملك أَخسَّ من عنده حتى يعاقبه، فإنه يُلقي نفسه إلى الأرض بين يدي الرسول وهو ذليل خاضع، حتى يمضي فيه ما أمر به الملك من العقوبة ولو كانت بذهاب نفسه"[٥٠]. وهذا البند يعني من الناحية السياسية وجوب طاعة رؤساء القبائل لأوامر الخان حصراً، والخضوع للرسل الذين يُرْسلهم، بما يعني نزع السلطةِ عنهم، وإخضاع قبائلهم لسلطة الخان. بالقدر الذي يساعد على تركيز السلطة بيد الخان. وتعزيز وحدة السلطة، ومنع تعدد مراكز القرار.

وفي السياق نفسه أكدت بعضُ النُصّوص على وجوب الحفاظ على ولاءِ المحكومين لخان المغول حصراً، وتجريم من يمنح ولاءه إلى غيره، فقد نصّ احد بنود الياسا على منع أمراء المغول وزعماء القبائل من التردد لغير الملك، وأنّه "من تردد منهم لغير الملك قُتِل"[٥١]. وهذا البند يمكن أن يكون موجهاً إلى بعض رؤساء القبائل الذين كانوا يتبعون أو ينفذون أوامر زعماء القبائل المجاورة، أو غيرها من القوى المعادية للمغول. فقد كانت إمبراطورية الصين . مثلا . تعتمد على إشغال جيرانها من القبائل المغولية والتترية في صراعات ومنافسات فيما بينها، لكي تحافظ على حدودها الغربية من هجمات السلب والنهب التي تقودها هذه القبائل. وكان من أثر

ذلك نشوء معارك عدة بين المغول والتتار(*)، شارك فيها يسوكاى والد جنكيز خان بنفسه، مما أدى إلى تعاظم نفوذ التتار على حساب القبائل المغولية، بفضل مساندة أسرة كين لهم على حساب المغول، فكان ذلك سبباً في تداعي مملكة المغول الناشئة في عهد يسوكاى، وسيطرة التتار على شرق صحراء جوبى، بعد أن كانت في حوزة المغول(٥٢). وكان جنكيز خان على دراية عميقة بالسياسة التي درجت على انتهاجها أسرة كين، سياسة الإيقاع بين مختلف زعماء القبائل، لتامين الحماية لحدودها الغربية(٥٣). الأمر الذي كان له أثره في تشتت ولاء الأمراء بين إمبراطور الصين وخان المغول. ومن هنا تبرز القيمة السياسية في سنّ قانونٍ ملزمٍ لجميع زعماء القبائل في عدم منح ولائهم للقوى الخارجية بعيداً عن سلطة الخان.

كما حرص جنكيز خان من خلال الياسا على ربط أجزاء الدولة بعضها ببعض، لضمان الحفاظ على وحدة الدولة، وفي هذا الاتجاه فقد فرض على كلّ "سلطان بإقامة البريد حتى يعرف أخبار مملكته بسرعة"(٥٤). ولزيادة فاعلية النظام البريدي فقد ألزمت الياسا الأمراء بوضع "نظام الكشافة (وان يحددوا) لهم متطلبات من مركوب ومأكول ومشروب وأسلحة (وان يجعلوا) لكل تومانين(**)من الجيش كشافة واحداً مهمتهم إعانة الرسل المتجهة في البلاد شرقاً وغرباً"(٥٥). وهذا البريد من شأنه أن يساعد على إخماد أي تمرد قد يحدث قبل تفاقمه، ويمنح الخان قدرة أكبر على متابعة شؤون دولته وبخاصة في الإطراف.

إنّ النِظام البريديَّ عند المغول مثّلَ أحدَ وسائل الدولة لتوحيد الإمبراطورية، ذلك أن هذا النظام مبنيٌّ على النهج الصيني، فأقيم من أجله المحطات، وجُهِزَت بالعدد المناسب من الرجال والخيل، وكانت هذه المحطات تمثل مصدراً لاستغلال السكان القاطنين حولها، إذ كانت مئونة وحاجات الرسل والسفراء ورجال الدولة المارين تأخذ من السكان، كما كانت في الوقت عينه أشبه بمراكز لجمع الضرائب والمعلومات(٥٦). والحق فإنّ الياسا سهّلت على الأمراء والرسل ممارسة عمليات الاستغلال التي كانت تقع بحق الأهالي، ذلك لأنّها فرضت على الأهالي الذين تقع قراهم على طريق الرسل مهمة مساعدة الرسل، إذ إنّ "عليهم أن يقدموا لهم الدواب اللازمة. وإذا ما قلّ عدد الكشافة في المحطات المعينة لهم استعاضوا عنهم أو

ردفوهم بأشخاص من سكان المنطقة. وبما أن البلاد والعباد ملك الخان فإن الكشافة يمكنهم أن يجمعوا من السكان عشرة عشرة، ومئة مئة، وألفاً ألفاً ليكوّنوا جيشاً"[٥٧].

لقد أدى النظام البريدي المتبع عند المغول إلى سرعة الحصول على المعلومات وإرسال الأوامر، فقد كان بإمكان الرسل أن يقطعوا مائتي ميل في اليوم الواحد، وذلك لأنهم كانوا يستبدلون بخيولهم خيولاً جديدة عند كلّ محطة في الطريق. وكانوا يحملون أوامر الخان في أنابيب مختومة من الذهب. وكانوا يُطلون وجوههم وأجسامهم بالشحم حتى يحتموا من برودة الشتاء القارصة. وكانت الأجراس المعلقة في أحزمتهم تجلجل محذرة المسافرين الآخرين لكي يخلوا لهم الطريق. وبهذه الطريقة كان هؤلاء الرسل يقطعون المسافات في وقت اقل كثيرا مما كان يستغرقه ركاب البريد الأمريكي السريع الذين عرفتهم أمريكيا بعد ذلك بأكثر من ستمائة عام[٥٨].

ومن خلال الياسا فرض جنكيز خان على الأمراء وسائر المغول عند رأس كل سنة بعرض سائر بناتهم الأبكار على السلطان ليختار منهن لنفسه وأولاده[٥٩]. وهذا الإجراء يحمل قدراً كبيراً من الرمزية التي تشير إلى الخضوع والإدانة بالطاعة للخان. كما أنها تساعد على ربط مختلف القبائل بمصاهرات سياسية مع الخان وأمرائه. وهو أمرٌ له أهميته في تحقيق الوحدة، وشدَّ أواصر العلاقة بين قبائل المغول.

ب. بناء الجيش:

يمثل الجيش أحد أهم المرتكزات التي قامت عليها إمبراطورية المغول. فقد كانت دولةُ المغول في معظم جوانبها عسكرية الطابع، وكان المجتمع مهيئاً ومعبّئاً عسكرياً، وقادراً على مباشرة القتال في أيّ وقتٍ، وهذا الأمرُ اقتضته طبيعة الحياة التي عاشها المغول، التي طغى عليها طابع السلب والنهب. فأصبح من اللازم على القبائل، لكي تكون مستقلة ومحافظة على أمنها، أن تكون لها قوة عسكرية تحارب بها القبائل المنافسة.

كانت عملية تنظيم الجيش إحدى أهم انجازات جنكيز خان[٦٠]. فقد أتصف جيش المغول في عهده بالعديد من الصفات التي ميّزته عن بقية الجيوش في تلك الحقبة. كحسن

التنظيم، وسرعة الحركة، وحسن طاعة الجند للأمراء. قال الجويني: "ولم يعهد لجيش ما منذ عهد آدم حتى الآن أنّ أحتل ما أحتله جيش جنكيز، كما لم يذكر في كتاب أن تمكن ملك من السيطرة على جيشه كما هو حاصل في جيش التتار، فهو على الشدة صابر وللرفاهية شاكر، يطيع أميره في السراء والضراء، وهذا لعمري أفضل القواعد في ميدان إعداد الجيوش"(٦١). وربما كانت هنالك علاقة بين السعي نحو تنظيم الجيش على هذا النحو الدقيق، وبين الرغبة في السيطرة على العالم(٦٢).

إن الميّزات التي أتصف بها جيش المغول تعود أساساً إلى العديد من القواعد والأحكام التي فرضتها الياسا على المغول، وقادت بالضرورة إلى تكوين جيش قويّ ومنظّم، يدين بالولاء لقائد واحد. فقد ركّز جنكيز خان من خلال الياسا على تكوين جيش منظّم قوىّ جاهز للقتال في كل وقت وحين، فأكد من خلالها ضرورة عرض المرؤوسين على رؤسائهم ما بعهدتهم من قوة وتجهيزات، قال المقريزي: "وألزم ـ جنكيز خان ـ القائم بعده بعرض العساكر وأسلحتها إذا أرادوا الخروج إلى القتال، وانه يعرض كل ما سافر به عسكره، وينظر حتى الإبرة والخيط، فمن وجده قد قصر في شيء مما يحتاج إليه عند عرضه إياه عاقبه، وألزم نساء العساكر بالقيام بما على الرجال من السخر والكلف، في مدة غيبتهم في القتال، وجعل على العساكر إذا ما قدمت من القتال كلفة يقومون بها للسلطان ويؤدونها إليه"(٦٣).

لقد اتجهت الياسا نحو تنظيم الجيش تنظيماً دقيقاً، ولذلك فقد أوجبت على المغول إيجادَ أمراء للعساكر وجعلهم "أمراءَ الألوفٍ والمئات والعشرات"(٦٤). وهذا الترتيب أدى إلى سهولة معرفة أعداد الجيوش، وسرعة جمعهم عند الحاجة، مما منح الجيش المغولي أفضلية المباغتة على بقية الجيوش، بِفضل قدرته على التجمّع بيسر وسرعة. بحيث أنه، وبحسب وصايا الياسا "إذا اضطرهم الأمر إلى إعداد جيش ما حددوا لساعتهم عدد الآلاف التي يريدون، على أن يجتمعوا في اليوم الفلاني ليلاً أو نهاراً، فتراهم مستعدين في المكان المحدد والزمان المحدد"(٦٥).

إنّ هذا التنظيم للجيش إلى العشرات والمئات والألفيات، لم يكن مجرد تنظيمٍ عسكريٍّ فحسب، بل كان أيضا يمثل تنظيماً مدنياً، إذ لم يكن من شأن هذه القيادات قيادةُ

الجنود فحسب، بل كانوا أيضا معنيين بتدبير أمرِ أُسرِ المحاربين، وقد وقع على عاتقهم جمع الضرائب، وتجنيد الجنود، وإقامة القضاء بين المغول، والعديد من المهام الإدارية والاقتصادية[٦٦]. وهذا السياقُ المُتبع عزّز من الطابع العسكري للمجتمع المغولي.

وهذا التقسيم (عشرات ومئات وآلاف) الذي فرضه جنكيز خان على المغول من خلال الياسا، أدى إلى ضربِ الأواصرِ القبليةِ بين المغول، ذلك أنّه وضع ممثلي القبائل المختلفة تحت قيادة ألفية أو مئوية واحدة[٦٧]، وأخذت تجمع بينهم الخدمة والمعيشة الموحدة في مكان وجودهم. كما أدى الأمر إلى انشقاق أكبر القبائل المغولية، مثل قبيلة: التتار وميركيت وجاجيرات ونايمان وكيريت، إذ أصبح شملُ هذهِ القبائل مشتتاً إلى التقسيمات الألفية[٦٨]. ولا ريب في أن هذا التقسيم منح جنكيز خان وضعاً أفضل للسيطرة على القبائل الكبيرة المنافسة له، وإضعاف قوتها اتِجاهه، كما أنها مكنته من استيعاب القبائل الكبيرة في تنظيمه العسكري.

كما نصّت الياسا على أن الرجال الخاضعين للحرب "إذا حانت ساعةُ الحرب لم يترفّعوا، ولم يأنف الشريف ولا الوضيع، فهم جميعاً يعدون أنفسهم ضاربي سيوف، ورامي نبال، وطاعنين بالرماح، يستقبلون العدو بأي سلاح وقع تحت أيديهم، ولا يكلّون ولا يتعبون، المصلحة الحربية فوق كل اعتبار، والانتصار أولاً حتى وان كانت آلة الحرب حبلاً..فإن اعترض معترضٌ منهم يوم توزيع السلاح آخذوه وأدبوه تأديباً عنيفاً"[٦٩]. وهذا التوجيه عزّز من الطابع العسكريّ للمجتمع، وساوى بين مختلف الفئات الاجتماعية أمام واجب القتال، ومنح الأولويةَ للشؤون العسكرية، على حساب بقية النشاطات الاقتصادية، كالزراعة والرعي. والمحصّلة النهائية من هذه التهيئة العسكرية ذيوع صيت المغول في سرعة التعبئة وقوة المباغتة، حتى مُلِئَتْ قلوب ضحاياهم خوفاً ورعباً، فكانوا يبادرون إلى الهجوم قبل أن يبلغ العدو التحذيرُ والإنذارُ[٧٠].

كما فرضت الياسا على المغول البقاءَ في حالةِ الاستعداد والجاهزيّة التّامة، قادرين على القتال بمختلف الظروف والأحوال، سواءٌ ذلك في زمن السلم أم الحرب. وفي هذا الصدد فرضت الياسا الصيد على أمراء المغول وجنودهم، وأكدت أنّ على أمير الجيوش "أن يدرّبَ

الجنود على الصيد ويربيهم على متابعة الفروسية... ولا يتوقف الجيش مطلقاً، فهو إما أن يتدرّب على العمل الحربيّ، وإما أن يتوجه إلى الصيد والقنص، وليس الهدف هو الصيد وحسب بل الرياضة ورمي النبال، وتحمّلُ المشقّات.."[٧١]. كما أشارت إلى أنّ "على الملك أن يفوّض كبار أُمرائه بالصيد معه، ويسهّلَ رفقة سيدات القصر، والسراري"[٧٢]. وفي أثناء حملات الصيد هذه جرى الحرص على مراعاة كل ضوابط النظام العسكري بكل دقة على نحو ما يحدث في الحملات الحربية[٧٣]. فقد كان المغول خلال عمليات الصيد كما لو كانوا في معركة حربية، فكان الصيد يدرّب الصغار على مطاردة الأعداء، ويضعهم في المواضع الحرجة على سبيل الدربة والاختبار[٧٤]. ولذلك عُدّت حملات الصيد أفضل مدرسة للتدريب العسكري، وبخاصة حملات الصيد الشتوية التي احتلت مكانة أساسية عند المغول، إذ كانت هذه الحملات تتطلب مشاركة فيالق من العسكريين، وكانت هذه الفيالق تشكّل حلقات كبيرة تحيط بالحيوانات، ومثل هذه الحملات كانت تستغرق ما يقرب من الثلاثةِ أشهر، وكان لها ـ فضلاً عن الناحية العسكرية ـ مردودٌ اقتصاديٌّ كبيرٌ، إذ أنها كانت تزود المغول بما يعوزهم من مَؤُنه خلال الشتاء[٧٥] .

لقد كان جنكيز خان يدرك جيدا بأن الطريقة الأمثل لثني المغول عن نَحرِ رِقاب بعضهم هو في إشغالهم بالحروب مع الخارج. أما أيامَ السلم فإنّ إشغال جيش المغول بالصيد له أثره في البقاء عليه موحداً متكاتفاً، وأنّ تركه فارغ الوقت أيام السلم قد يؤدي إلى انقلابه حرباً على نفسه، إذ أنّ قضاء الوقت بلا قِتال قد يجرهم إلى التنابذ والتنافر والتشاحن[٧٦]. وهذه القضية تحمل على الاعتقاد بأنّ الحروب وعمليات الصيد في الفكر السياسي عند جنكيز خان لها أهميّتها القُصوى في تحقيق الوحدة والتماسك الداخلي بين المغول.

ومن اجل المحافظة على بقاء الجيش منظماً، فقد قضت الياسا بـ "أنّ الجندي من الألف أو المئة أو العشرة لا يجوز له أن يغير مكانه أو تبعيته، كما لا يجوز للأمير أن يقبل هؤلاء. ويقتل المخالف من الجنود أمامَ الملأ"[٧٧]. والهدفُ من تقييد حرية الجند هو تثبيتهم في مواقع عملهم ومعيشتهم، والحَدُّ من تنقلاتهم، بما يساعد على متابعتهم وإحكام السيطرة عليهم[٧٨]. كما أنّ هذا القيد له دوره في الحفاظ على ولاء الجنود لمرؤوسيهم وعدم تغييره. بما يفّوت على معارضي الدولة فرصة تكوين وحدات أو تكتلات جديدة مناوئة لها. ثمّ إنّ هذا

التقيّد في حرية التنقل يعني عملياً ربط الجنود بأراضي أمراءِ المغول ونبلائهم، والتعامل معهم كجزءٍ من ملكية الأراضي، الأمر الذي مهّدَ في النهاية لانتشار ظاهرة أقنان الأرض عند المغول[٧٩]. وهذا الإجراء كانت له أهميته الخاصة مع أفراد القبائل التي ترفض الاستقرار، وتتميز بكثرة التنقل والترحال[٨٠].

٢/ في السلطة ونظام الحكم:

منح جنكيز خان مسألة الحكم وما يتعلق به من أمور اهتماماً خاصاً في قوانينه الياسا، فقد عالج الكثير من القضايا ذات الصلة المباشرة بالسلطة، مثل مسألة طبيعة علاقة الياسا بالسلطة، وصلاحيات الحاكم ومبررات خلعه، ومسألة الطاعة وأسلوب تداول السلطة، وما إلى ذلك. وهذه أمورٌ تدل أولاً على أن جنكيز خان لم يشأ أن يترك لخلفائه إدارة شؤون الدولة وفق أهوائهم، كما إنها تدل على أن المغول لم يعدم نظام الحكم عندهم من آراءٍ سياسية اشتملتها قوانين الياسا.

كان جنكيز خان يعتقد بأنه يملك تفويضاً إلهياً بالحكم، وأنّهُ أداةٌ ربانية لتحقيق إرادة السماء، وكان الرأي العامُّ المغولي يشاطره اعتقاده هذا[٨١]. وقد راجت على الألسن عن أحد المغول المعتبرين ويدعى "تب تنكري" أنّه قال: "لقد كلّمني الله، واخبرني أنّ الأرض سيرثها تمرجين وأبناؤه ويدعى جنكيز خان"[٨٢]. وما هو أساسي في مثل هذا الاعتقاد لا يكمن في أن جنكيز خان بكلّ صدق ومسؤولية آمن بأنه مختار من قبل السماء، بل في أنّه تمكن من الإيحاء بهذا الإيمان للآخرين، وهذا يعني بالنسبة لأتباعه شرّعية بل وحتى قدسية أفعاله[٨٣]. ولا ريب في أنّ مثل هذا الاعتقاد خدم مصالح جنكيز خان، ذلك لأنّ المغول كانوا يخشون قوة السماء الأبدية، كما كانوا يسمونها، أكثر من أي شيء آخر، فمن السماء تأتي العواصف الثلجية والرعد والبرق، ومنها أيضا يأتي دفءُ الربيع الذي يهب الحياة والأمطار التي تغذي الحشائش[٨٤].

إنّ الاعتقاد بأنّ شرّعية سلطة جنكيز خان قد نزلت من السماء، وانه مختار السماء لفتح العالم أدت إلى استكانة التابعين لحكمه[٨٥]، ومنحتهم الشعور بشرعية أفعالهم والثقة بالنصر[٨٦]. ومن أجل ذلك عُدّ الخروج على طاعة جنكيز خان ومخالفة أمره جرما عظيماً لا

يغتفر، ذلك لأن أوامره، في عقيدة هؤلاء القوم، إنما تصدر عن السماء، فعصيان رئيسهم إنما هو عصيان الله[٨٧].

وقد ترك هذا الاعتقاد أثره على مكانة الحاكم عند المغول، فأصبح بموجب الياسا مطلق السلطات، فكانت أوامره واجبة التنفيذ، فقد منحته الياسا الحكم المطلق، وأقرّت بأنه لا "يسمح لأي مخلوق أن يغير أمر القا آن وإرادته، ويكون آثما كلُّ من يفعل ذلك"[٨٨]. كما أقرّت بأن "الطاعة العمياء واجبة" للخان على رعيته[٨٩]. وأنّ من "يخالف مراسيم وأحكام القا آن قُطِع رأسه"[٩٠]. وأنّ حكم "من تجرأ على مخالفة القا آن أنّ يُجرد من ثيابه تماماً، ويضرب بالعصا التي تقرع بها الطبول"[٩١]. وهذا الاعتقادُ الذي قُنِّن بواسطة الياسا، ترك أثره في طبيعة علاقة المغول بحكامهم، بحيث أنهم أصبحوا "أعظم الأمم طاعةً لسلاطينهم"[٩٢].

إن الطاعة العمياء للقا آن التي فرضتها الياسا جعلت السلطة مرّكزة بشخص الحاكم. وفي إطار المحافظة على هذا الامتياز فقد فرضت الياسا على الأمراء إن غدا أحدهم ذا مقام أن "لا يتلّقب بالألقاب الرفيعة، حسبه أن يضيف إلى اسمه ''خان'' أو ''قا آن'' من غير أن يضاف هذا اللقب في الكتابة، أما أولاده وإخوته فيُنادون بالأسماء التي وسموا بها حين ولادتهم، ولا يكتبون على أوامرهم الملكية ومنشوراتهم الهمايونية ألقاباً، فلا فرق بين السلطان والعامة، ولا يسجلون على الأوامر إلا المقصود الأصلي من غير إطناب"[٩٣]. والهدف من هذا المنع هو الإبقاء على عظمة اللقب الإمبراطوري للخان على ألقاب بقية الأمراء، ثم لإعاقة نمو الارستقراطيات الإقطاعية بمنع اتخاذ الألقاب الفخمة[٩٤].

إنّ هذه السلطة المطلقة التي تمتع بها الخان هي توصيفٌ لطبيعةِ علاقته مع الرعية والأمراء فحسب. وفيما عدا ذلك فقد كان ملك المغول مقيداً بأحكام الياسا، ولم يكن له مخالفتها[٩٥]، وقد أشار المقريزي إلى أنّ جنكيز خان فرض على "أولاده وأتباعه حكم الياسا" حتى أصبح "ذلك ديناً لم يعرف عن أحدٍ منهم مخالفته بوجه"[٩٦]، "فصار الياسا حكماً بتاً بقي في أعقابه لا يخرجون عن شيء من حكمه"[٩٧]. ولذلك تضمنت الياسا إشارة إلى أن كل من خالف أحكامها من الحكام "فخلعه واجبٌ"[٩٨]. وإن "كلّ من لم يُمضِ حُكمَ اليَسق ولم يعمل به قُتِل"[٩٩]. وهذا الجزاء يشير إلى أن حُكام المغول كانوا مقيدين بأحكام الياسا.

ومن هنا يظهر بأن الياسا وضعت أُسسَ الخروج على الحُكام وخلعهم، وذلك في حالة مخالفتهم لأحكام الياسا. ولم يترك جنكيز خان هذا الأمرَ من غير ضماناتٍ تفرض على الحُكام العمل بقوانين الياسا مدة ولاياتهم، ولذلك فقد أوكل إلى أحد أبنائه "تنفيذ قانونه الياسا وسياسته وعقاب المقصر في ذلك"[١٠٠]. كما فرض على المغول من خلال الياسا الاجتماع "يوماً في السنة يسمونه (الطوى) ومعناه يوم الضيافة، ويأتي أولاد تنكيز (جنكيز خان) والأمراء من أطراف البلاد، ويحضر الخواتين وكبار الأجناد. وإن كان سلطانهم قد غير شيئاً من تلك الأحكام يقوم إليه كبراؤهم فيقولون له: (غيرت كذا وغيرت كذا، وفعلت كذا وقد وجب خلعك) ويأخذون بيده ويقيمونه عن سرير الملك، ويقعدون غيره من أبناء تنكيز. وإن كان أحد الأمراء الكبار أذنب ذنباً في بلاده، حكموا عليه بما يستحقه"[١٠١]. وهذا دليلٌ على أن الياسا ألزمت المغول وضع ما يمكن تسميته بـ"مجلس شورى" او "القوريلتاي" كما يسميه المغول[١٠٢]، مكوّن من أمراء المغول، مهمته مراقبة الحكام والتدقيق في مدى التزامهم بأحكام الياسا، وإنّ من صلاحيات هذا المجلس خلع الحُكام الذين لا يلتزمون العمل بأحكامها.

إنّ السماح للمغول، ولاسيما الأمراء منهم وزعماء العشائر، بمحاسبة الحُكام من خلال اجتماع مجلس "القوريلتاي" هو المناسبة الوحيدة التي أقرّتها الياسا، والتي يسمح فيها للمغول بمحاسبة حُكامهم، وبالرغم من ذلك فإنّ هذا الاجتماع غالباً ما يُعقد خلال الفترات التي يخلوا فيها العرش الإمبراطوري من الحاكم، حيث تبدأ إجراءات انتخاب الخان الجديد، ولم يكن قانون الياسا يسمح لأحدٍ أنّ يعلن نفسه خانا للمغول من غير أن يُنتخب من مجلس القوريلتاي[١٠٣]. ويجب الأخذ بالاعتبار أنّ أهمية الأفراد في مثل هذه الاجتماعات تتحدد بدرجة قرب قبائلهم من قبيلة جنكيز خان. ولم يكن مثل هذا الأمر يشمل الكثير من القبائل التي لا تجمعها مع جنكيز خان درجة قرابة معينة. إلا أن هذه المجالس غالبا ما تعقد أيضا لاستدعاء الأمراء وزعماء العشائر كي يتلقوا أوامر الخان، ولاسيما فيما يتعلق بالتحضير للغزوات والحملات الحربية الجديدة المزمع تنفيذها[١٠٤].

إن إلحاح جنكيز خان على وجوب مداومة العمل بأحكام الياسا من بعده، ووضع الضمانات الكفيلة لديمومة ذلك، يشير إلى القلق الذي كان يراوده من احتمال تهاون أبنائه وأحفاده من بعده في أمر الياسا، خاصة وأنّه كان يعتقد بأنّ وحدتهم وقوتهم مرهونة بالمحافظ على الياسا. وهذا القلق يدلُّ على بُعدِ نَظَر جنكيز خان، وإدراكه العميق لحقيقة التحديات الحضارية التي ستواجهها تقاليد المغول وقوانينهم مع ازدياد احتكاكهم بالشعوب المغلوبة المتفوقة عليهم حضاريا.

كان جنكيز خان يعتقد بأنّ الحِفاظ على وحدة الإمبراطورية مرتبط تماما بالحفاظ على وحدة العائلة الحاكمة، وإن مسألة ولاية العرش تُمثّل أكبر تهديد لوحدة أبنائه من بعده. ومما يُروى في هذا الجانب أن جنكيز خان "في أحد الأيام جمع أبناءه، وأستلم نبلاً من كنانته ولواه أمامهم فكسره، وأعاد الكرة بنبلين فكسرهما، وأستمر يخرج النبال ويزيد واحداً على العددِ السابقِ حتى بلغ عددها كثيراً، فاستحال كسرها حينئذ. فأتجه نحو أولاده وقال: أنّ مثل الواحد منكم مثل النبل الواحد، فإنّ استعنّتم ببعضكم بعضاً لم يقدر الخصوم عليكم، وعجزوا عن النيل منكم. وستظفرون حتماً على الأعداء مهما بلغت شوكتهم بتعاضدكم. وإذا لم يحظ أحدكم برئاسة فعليكم أنّ تأخذوا برأيه، وترضوا بحكمه، كالثعبان ذي الرؤوس العديدة قد هاجمه البرد ذات ليلة فأراد أن يزحف إلى حجره، وكلّما أراد رأسٌ أنّ يسد باب الحجرة نازعته الرؤوس الأخرى حتى كان هلاكه. وثمّة ثُعبان برأس واحد دخل حجره فأمن شر البرد بعد أنّ أدخل ذيله وسائر أعضائه... وحين أنهى نصائحه وأوامره عند هذه الكلمة ركع الأولاد وقالوا: إنّ أبانا الملك ونحن العبيد، قد أضخنا لأمرك ورأيك" عندها قال جنكيز خان: "إذا كان هذا أملكم فستعيشون في نعيم ودلال كل عمركم، وإن رأيتم رأيي، بعد أنّ سمعت منّكم ولاءكم، فإنني أختار أوكتاي ليجلس على سرير الخانية لما يمتاز به من رأي متين وعقل راجح، ولما يتمتع به من رعاية للجيش، وحماية للرعية، ومحافظة على الثغور بفكر ثاقب وتدبير حسن، كل هذا جعلني اختاره وليا للعهد، وأتوقع منه أنّ يمسك بدفة الحكم بصرامةٍ وكفايةٍ... (ثمّ) عاد الأبناء إلى ركوعهم بعد أنّ سمعوا نصائح أبيهم، يعبرون له عن شكرهم وانقيادهم، معلنين الطاعة لأوامره التي لا راد لها ولا اعتراض"[١٠٥].

مما سبق يظهر جلياً أنّ جنكيز خان كان قلقاً من مسالة وراثة عرشه، ومما يؤكد ذلك ما رواه الهمذاني من أنّ جنكيز خان لمّا "خَبَرَ أحوال أولاده، وعرف ما يناسب كلّ واحد منهم من الأعمال، كان مترددا في أمر العرش، فكان أحياناً يفكر في إسناده إلى أوكتاي، وأحياناً كان يرى أن يعهد به إلى أبنه الأصغر تولوي"(١٠٦). ويبدو أنّ جنكيز خان قد أدرك بعد أنّ عاين مؤهلات أبنائه بأن ابنه الأوسط أوكتاي كان الأكفأ من بينهم، ولذلك عمد إلى مشاورة بقية أبنائه في حياته لجعل ولاية العهد له، حرصاً منه على أن لا يختلفوا من بعده، فلما أخذ من أبنائه العهد بأنّ ينصاعوا لوصيته في ولاية العهد لأوكتاي، عمد إلى أخذِ تعهدٍ خطيٍّ من الجميع بألا يخرجوا عن طوع أوكتاي، وقال لأبنائه: "إذا انطوت نيتكم على الاتفاق، ولسانكم مع فؤادكم على وفاق، فليقرن الكلام بالكتابة بأن الخان بعدي هو أوكتاي، وأمره كالروح في الجسد، ولن يتغير ما رسمته اليوم ولن يتبدل، فكتب الأولاد جميعاً امتثالاً لأمرِ والدهم ما طلبه"(١٠٧). وقد أصبح هذا الإجراء قانوناً ملزماً للمغول، اندرج ضمن بنود الياسا التي فرضت على الأمراء عند انتخاب كل خان جديد بأن يـ"تعهدوا خطياً أنّ يأتمروا بأمره ولا يحرفوا من قوانينه"(١٠٨).

أدّى إتباع المغول لوصية جنكيزخان في تولي أوكتاي العرش إلى إقرار أسلوب الوصية في تداول السلطة في الرؤية السياسية عند المغول، وهذا الطريق عزّز من مبدأ الوراثة، على اعتبارِ أنّ الوصية كانت غالباً ما تأتي لصالح أبن أو قريب الخان الراحل، مما أدى إلى حصر الحكم داخل العائلة المالكة فقط. وقد تم استيعاب هذا الأسلوب والتعامل معه بايجابية في الحياة السياسية عند المغول، ولاسيما بعد أن أصبح أمراً واقعاً بعد أن سنّهُ لهم جنكيز خان. وهذا الأسلوب أصبح الأكثر رواجاً في تداول السلطة فيما بعد.

ويلاحظ أنّ المرشحين للحكم انحصروا في أبناء جنكيز خان من زوجه الأولى يسونجين بيكي، وهذا الأمر مهدت له بعض بنود الياسا، فقد كان الأولاد من الزوجة الأولى يحضون بالاحترام الأكبر من بين بقية الإخوة غير الأشقاء. فلم يكن الأولاد من الإماء يحضون بالمكانة التي يتمتع بها أبناء الحرائر، وقد أقرت الياسا بـ"أن أبناء الأم من أب واحد ينسبون إلى أمهم. وتزداد قيمة الأم بأولادها"(١٠٩). كما إنّ جنكيز خان قد مهّد لأبنائه من يسونجين بيكي

الحكم بما أوكل لهم من مهام في حياته، فأختار "لكل واحد منهم أمراً مخصوصاً في الحكم: فالأكبر هو توشي، مهمته الصيد والطرد، والأصغر منه جغتاي أمره بتنفيذ قانونه . الياسا . وسياسة وعقاب المقصر في ذلك، ثم أوكتاي واختاره عقل الملك ومدبره وصاحب الرأي فيه، وتولي خصه بترتيب الجيوش وإعداد الجنود"(١١٠).

حاول جنكيز خان من خلال الياسا وضع بعض القواعد التي تُؤمّن انتقالاً سلمياً للسلطة. فضمّن من خلال الياسا نصاً يشير إلى أن "مقام الوالد (ينتقل) بحكم قانون المغول إلى الولد الأصغر"(١١١). وان "الابن الصغير لا يقتسم ولا يخرج عن بيت أبيه، وإذا مات الأب فهو يتولى تدبير المنزل"(١١٢). ويلاحظ أن الجويني قد أحجم عن الإشارة إلى أن "الابن الصغير لا يقتسم ولا يخرج عن بيت أبيه" ربما لأنه كان مشايعاً لهولاكو(ت٦٦٣هـ/١٢٦٤م) حفيد جنكيز خان من ابنه الأصغر تولوي، فقد كان موظفاً عند هولاكو، وأن هذه الإشارة قد تقلل من حق أبناء تولوي في المطالبة بالحكم(١١٣). ومهما يكن الأمر فإن الياسا بهذا البند اتجهت نحو جعل الابن الأصغر وصياً على العرش إلى حين انتخاب الخان الجديد. وهذا الأمر من شأنه أن لا يسمح بدخول الاضطراب إلى المملكة خلال الفترات الانتقالية التي يخلوا فيه العرش الإمبراطوري من الخان. ومما له مغزى أنّه في أثناء هذه الفترات الانتقالية كانت الإمبراطورية تسير بقوة قانون الياسا(١١٤).

من الواضح أن وصايا جنكيز خان كانت حاضرة بقوة في تحديد الحاكم الجديد للمغول بعد وفاته، وقد تمّ الالتزام بها خلال اجتماع الأمراء والعساكر لانتخاب الخان الجديد، غير أنّ الطقوس والطريقة التي انتخب بها أوكتاي تدلنا عرضاً على بنود أخرى للياسا تتعلق بالسلطة ونظام الحكم. فبعد ما أجتمع الأمراء في مجلس القوريلتاي "ثم شرعوا فيما تقدم به جنكيزخان من الوصية والعهد بالمملكة إلى أوكتاي فامتثلوا كلهم الأوامر الجنكيزخانية واعترفوا بأهليته لذلك. فاستقالهم أوكتاي الولاية قائلاً: إن أمر الوالد وان كان لا اعتراض عليه، لكن ههنا أخ أكبر مني وأعمام هم أولى مني بها. فلم يقيلوه إياها وأصروا على انه لا بد من امتثال مرسوم الوالد ودأموا على إصرارهم أربعين يوماً وما زالوا يتضرعون إليه ويلحون عليه بالمسألة حتى أجاب إلى ذلك فكشفوا رؤوسهم ورموا مناطقهم على أكتافهم واخذ جغاتاي أخوه الكبير

بيده اليمين واوتكين عمّه بيده اليسرى فأجلساه على سرير المملكة ولقباهُ قا آن ولزم له الغ نوين (لقب تولوي) كاس شراب فسقاه وجثا كل من كان حاضراً داخل الخركاه (الخيمة) وخارجها على ركبتيه تسع مرات ودعوا له، ثم برزوا كلهم إلى خارج وجثوا ثلاث مرّات حيال الشمس. وإنما اختص الغ نوين بلزوم ألكأس لأنه أصغر أولاد جنكزخان وفي عادة المغول أن الابن الصغير لا يقتسم ولا يخرج عن بيت أبيه وإذا مات الأب فهو يتولى تدبير المنزل. ففي تلك الأربعين يوماً كان يقول أوكتاي: إن الغ نوين هو صاحب البيت وأكثر مواظبة لخدمته، وأبلغ مني تعلماً لسياسته، فالمصلحة تفوّيض هذا الأمر إليه. فلذلك سبق الجميع بتصريح الطاعة"[١١٥].

من خلال النص السابق الذي يشير إلى المراسيم التي اتُبِعت لتنصيب أوكتاي يمكن استنباط بعضٍ من بنود الياسا، ذلك أنّ الأمراء لمّا اجتمعوا في مجلس القوريلتاي أشاروا إلى وجوب العمل بوصية جنكيز خان في اختيار الخان، فاستقر رأيُ الجميع "على إسناد منصب . القا آنية إلى أوكتاي قا آن عملاً بوصية جنكيز خان"[١١٦]. غير أن أوكتاي "استقالهم" واعتذر عن تولي المنصب، وبرّر ذلك بوجود من هو أكفأ منه لتولي الحكم. فرد عليه الأمراء بأنهم لا يقدرون على تغيير أو تبديل "حكمه . جنكيز خان . المحكم وأمره المبرم" ثمّ أنّه "بعد الإلحاح والمبالغة في الإصرار، وجد أوكتاي قا آن أنّ عليه أن يمتثل للأمر، وأن يعمل بإشارة أعمامه وإخوته، فرضي بقبول هذا المنصب"[١١٧]. والواقع فإن أوكتاي لم يتعمد الاعتذار عن تولي الحكم لكي يحصلَ على تأكيد واعتراف الجميع بولايته. ويستوثِقنّ لحقّه في الملك. إذ أنّ الاستقالة والاعتذار عن الحكم جاء منه تنفيذاً لقواعد الياسا، ذلك أنّ الياسا فرضت "على ولي العهد أنّ يتمنع عن تولي العرش، ولا يقبله إلا بعد أن يبدي له الأمراء الكثير من التشجيع والملاطفة والإلحاح"[١١٨]. وهذا البند يحمل دلالات سياسية عميقة لها أثرها البالغ على استقرار الحكم، ذلك انه يفرض على جميع الأمراء الإلحاح على المرشح للعرش للقبول به، مما يعني اعترافهم العلني بأحقيته في تولي العرش من دونهم. وهكذا لم يتولَ أوكتاي العرش إلا بعد استعفاء أعقبه إلحاح وإصرار من قبل الأمراء[١١٩]. وهذه الحالة يجب أن تستمر لمدة أربعين يوما. ولذلك داوم الأمراء "على إصرارهم أربعين يوماً وما زالوا يتضرعون إليه ويلحون

عليه بالمسألة حتى أجاب إلى ذلك"[١٢٠]. وبعد هذه المدة تقدم الأمراء نحو أوكتاي "وفوّضوه أمر الحل والعقد والنقض والإبرام" وذلك بعد أن أجاب إلى طلب الأمراء بتولي الحكم، ثم إنّهم و"بحسب العادة القديمة رفعوا قبعاتهم عن رؤوسهم ورموا أحزمتهم على أكتافهم"[١٢١]. وهذا الإجراء هو من بنود الياسا المتبعة، فقد قضت الياسا أنّه وبعد أن يوافق الخان الجديد على تولي العرش، فإنّ على الأمراء أن يكشفوا رؤوسهم وأن يرموا مناطقهم على أكتافهم، وربما كانت عملية كشف الرؤوس إجراءاً رمزياً يدلّ على الخضوع والتبعية للخان الجديد، خاصة وأنّ الياسا بعد إتمام إجراءات انتخاب الخان الجديد فرضت على "أبناء الملوك جميعا تعبيراً عن العبودية والامتثال لقا آن (أن) يركعون للشمس ثلاث مرات"[١٢٢].

ولكي يؤكد أوكتاي على أنّه سائر على وفق قواعد الياسا في حكم البلاد، كان أولّ أمر ملكي صدر عنه هو أن تستمر الأوامر السابقة التي كانت في عهد جنكيز خان[١٢٣].

٣) العلاقات الدولية:

كانت العلاقة التي تحكم المغول مع القوة الدولية مبنية على الاعتقاد بأنّ الأرض كلّها ملكاً لجنكيز خان وأبنائه من بعده. وأنّ كلّ الملوك ينبغي أن يكونوا أتباعا أو خاضعين لجنكيز خان. ومما مهّد لهذا الاعتقاد ما راج على الألسن عن أحد المغول المعتبرين ويدعى "تب تنكري" أنّه قال: "لقد كلّمني الله، واخبرني أنّ الأرض سيرثها تمرجين وأبناؤه ويدعى جنكيز خان"[١٢٤]. وقد داوم جنكيز خان على تكريم "تب تنكري" هذا، و"كان يرجع إلى قوله ولا يعدل عن رأيه"[١٢٥]. ولا ريب أنّ جنكيز خان قد نظر بارتياح إلى النبوءات التي كان يشيعها تب تنكري وأمثاله، وربما تدخل في ترويجها بين الناس.

ليس هناك ما يدل على أنّ المراحل الأولى من حياة جنكيز خان اقترنت بفكرة السيطرة على العالم، ولم يتوافر لدينا من الأدلة ما يثبت أن جنكيز خان قد أعدّ في الزمن المبكر من حكمه خططاً للفتح خارج منغوليا، ولم يكن لحملاته الحربية الأولى التي وجهها إلى البلاد المجاورة من غرض سوى النهب، أما الحملات التي وجهها فيما بعد نحو الغرب فقد كان المقصود منها أول الأمر مطاردة الأعداء الهاربين إلى تلك الجهات، ولم تلبث أن تطورت إلى حروب منظمة للفتح والتوسع[١٢٦]. والراجح أن التفكير في السيطرة على العالم بدأ مع

جنكيز خان بعد سيطرته على إمبراطورية الصين والتأثر الذي رافق ذلك، وربما كانت فكرة جنكيز خان في السيطرة على العالم قد استُحِيت من الفكرة النصرانية التي تتجه نحو تكوين كنيسة عالمية لإمبراطورية عالمية.[١٢٧].

ومها يكن الأمر فلا ريب في أنّ الحاجة إلى هذا التوسع تطلب نُظُماً وقواعد جديدة، وهو الأمرُ الذي تكفلت الياسا بتوفيره. فقد كان على جنكيز خان أن يضّمن بنود الياسا النظم والقوانين الكفيلة بتحقيق سيادته على الأرض، وفي هذا الصدد يشار إلى أنّ وجود تعديلات عدة للياسا قد دفع بعض الباحثين إلى الاعتقاد بأنّ أغلب البنود إنما وضعت من اجل سد النواقص والثغرات في القانون العرفي الذي كان سائداً عند المغول، وذلك من أجل استبدال العادات القديمة بأنظمة جديدة تخدم أغراض جنكيز خان وطموحاته في إقامة إمبراطوريته، وتنسجم مع الوضع الجديد في الدولة، وهذا يشير إلى أنّ الياسا التي قننها جنكيز خان هي نسخة معدلة عن تقاليد المغول، تتماشى مع الحاجات التوسعية للدولة لا مع حاجات سلطة رئيس العشيرة. وتسعى نحو تحويل الحالة القبلية للمغول إلى الوضع الإمبراطوري. ولا ريب في أنّ الاتساع الذي أصاب دولة المغول قد ولّد الحاجة إلى إعادة صياغة الياسا أكثر من مرّة[١٢٨]. ولذلك أُعيد النظر في أحكامها بعد صدورها الأول سنة ٦٠٣هـ/ ١٢٠٦م، وذلك في الأعوام ٦١٥هـ/ ١٢١٨م، و٦٢٣هـ/١٢٢٥م[١٢٩]. من هنا يتضح بشكلٍ جلّي أن هذه التعديلات اقتضتها حاجات إمبراطورية المغول التوسعية[١٣٠].

إنّ الاعتقاد بأنّ شرّعية سلطة جنكيز خان قد نزلت من السماء، وانه مختار السماء لحكم العالم، قد ترك أثره في بناء توجهات عدائية توسعية في السياسة الخارجية للمغول. (فكما انه هناك آله واحد في السماء، فلا ينبغي أن يكون إلا حاكم واحد في الأرض)[١٣١]، وبذلك أصبحت الحرب أساس علاقة دولة المغول بالقوى المجاورة، وبات لِزاماً على الدول والشعوب والقبائل الخضوع والولاء (لأمر السماء) وذلك بالخضوع لممثلها على الأرض، ومن هذا المنطلق فإنّ عدم الاعتراف بالسلطة الخانية يعدّ تمرداً وعصياناً على إرادة السماء[١٣٢]. ومن أجل ذلك عُدّ الخروج على طاعة جنكيز خان ومخالفة أمره في نظر المغول جرماً عظيماً لا

يغتفر، ذلك لأن أوامره في عقيدة هؤلاء القوم إنما تصدر من السماء فعصيان رئيسهم إنّما هو عصيان الله[١٣٣].

مما سبق يظهر بوضوح أن الفكرة التي قامت عليها السياسة الخارجية للمغول مبنية على أساس الاعتقاد بأنّ الأرض كلها هي ملكٌ لجنكيز خان وأبنائه من بعده. وأنّ كلّ الملوك ينبغي أن يكونوا أتباعا أو خاضعين لهم. وعلى أساس هذا الاعتقاد بنيت السياسة التوسعية عند المغول[١٣٤]. ومن هنا تتهافت بعض التفسيرات التي قدمها عدد من المؤرخين لتعليل أسباب التوسع المغولي غرباً نحو العالم الإسلامي. كالإشارة إلى أنّ الخليفة الناصر لدين الله (٦٢٢.٥٧٥هـ/ ١٢٢٥.١١٧٩م) "هو الذي أطمع التتر في البلاد وراسلهم في ذلك" وأنّه لولا ذلك لما فكر المغول بالتوسع غربا[١٣٥]. وأنّه لولا قتل الخوارزميين في عهد السلطان علاء الدين محمد (٥٩٦-٦١٧هـ/١١٩٩-١٢١٩م) رسل جنكيز خان في مدينة أترار سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م، لما فكّر المغول في التقدم غرباً[١٣٦]. وبغض النظر عن مقدار الدقة في هذه الروايات، فلم يكن المغول بحاجة إلى رسالة من الخليفة الناصر أو إلى استفزاز الخوارزميين لهم للشروع في تحقيق حلّمهم بالسيطرة على العالم. ومما يدعم هذا الافتراض أن جنكيز خان قبل حادثة مدينة أترار أرسل إلى خوارزم شاه رسالة قال له فيها من ضمن ما قاله: "وأنت عندي مثل أعز أولادي"[١٣٧]، مما يعني أنّه نظر إليه على أنّه من أتباعه. والحق فان اعتقاد زعماء المغول في أنهم يملكون العالم هو السبب وراء فشل المراسلات التي أرسلها البابا انوسنت الرابع (١٢٥٤.١٢٣٤م) والملك لويس التاسع (١٢٢٦-١٢٧٠م) إلى المغول لتكوين حلف بين المغول والصليبيين لتطويق العالم الإسلامي[١٣٨]، إذ أن العاهل المغولي رفض الاعتراف بسلطة البابا عليه، واشترط أن يكون البابا تابعاً له كي يوافق على تكوين حلف ضد المسلمين. ومن الطبيعي أن لا يوافق البابا على هذا الشرط على اعتبار أنّ سلطته بحسب اعتقاده أعلى من سلطة جميع الملوك[١٣٩].

كانت الياسا هي القانون الذي سار عليه المغول لتحقيق سيادة جنكيز خان على الأرض، يدل على ذلك الإشارة إلى أن كُلَّ من قابله . جنكيز خان . "أو قاتله استقبله بالأحكام التي وضعها والقوانين التي قننها، آمراً بها أولاده وأشياعه وأجناده"[١٤٠]. وأنهم كانوا ملزمين

بانتهاج مسلكها في "تدمير مدن الأعداء"[١٤١]. وفي هذا الإطار حددت الياسا أشكال المراسلات الدبلوماسية مع الإمبراطوريات والدول المجاورة، ففيما يتعلق بإعلان الحرب، فإن المبدأ المغولي في التعامل مع الجيران، وفق قواعد الياسا، يتطلب منهم الخضوع دون تحفظات عند أول إنذار، فعلى وفق قواعد الياسا فقد كان على خان أو أمير المغول قبل الهجوم على المدن أن يرسل الرسل إلى الأعداء و"يعرض عليهم التبعية بطواعية.. فيرسل (إليهم) من (ينذرهم) (لينقادوا) إلى الصواب، ومن لم يفعل فالله الذي يلهمنا ما يجب فعله. فمن استقام وتدبر كان الكلام الذي ينفعه"[١٤٢]. و"أن كل من امتنع عن إتباعه بعد الإنذار فان مصيره الفناء"[١٤٣]. ذلك أنّه وعند "أول رفض من قبل العدو للأوامر، وأطلق ولو سهماً واحداً، أو قذف بحجرٍ، وحسب نظام الدولة المعمول به فإنّ الجميع يقتلون بلا رحمة في الأحوال كافة"[١٤٤].

إنّ الحكم بالفناء على الشعوب المغلوبة، على وفق قواعد الياسا، يهدف إلى ترهيب الآخرين وإدخال الخوف في قلوبهم، وقد جهد جنكيز خان نفسه كي يجعل أتباعه وخصومه يعتقدون انه "آلة غضب السماء"[١٤٥]. وقد كان من رأيه أنّ الشدة وحدها هي التي تجعل الطاعة طابع الشعوب المغلوبة[١٤٦]، وأن الإرهاب الجماعي حطم من معنويات الخصوم، ولذلك غدت القسوة عند المغول سياسة، فقد أراد المغول بإعمال القتل والتخريب قتل روح المقاومة في قلوب أعدائهم، وكانت حيلة المغول في التغلب على أعدائهم تقوم في بعض جوانبها على إدخال الرعب في قلوبهم، فتُشل حركتهم وتفكيرهم، وقد رسّخ هذا من أسطورة أنّ المغول شعب لا يُقهر[١٤٧].

إذن فقد كان الرعب من خصائص سياسة حكومة جنكيز خان الخارجية، وكانت للمذابح المقامة نظاماً ثابتاً مشروعاً عند المغول. وما لجأ إليه جنكيز خان من المذابح الجماعية، يعتبر جانبا من سياسته الحربية، ولم يدرك جنكيز خان ولا أتباعه من البدو أهمية الحضارة الزراعية أو المدنية، فكان من الأمور الطبيعية أن يدمروا المدن، وأن يخربوا المحاصيل الزراعية، ويحوّلوها إلى براري (استبس) إذ إنّ آلاف السنين من البداوة المتوارثة ومن الغارات

المخربة على المدنيات، وعلى البلاد التي تمتهن الفلاحة والزراعة قد رسّخت هذا الاعتقاد[١٤٨].

رابعا: ضمانُ تحقيق الأمن والاستقرار:

كانت حياة المغول محكومة بالقوّة والقسوة، فقد "كانوا أمةً تعيش على السرقة والعنف والفسوق والفجور،.. فهم في ضنكٍ من العيش ووبال وسوء حال"[١٤٩]. ولم يكن لهم نظامٌ يضبط فيه سلوك القويّ تجاه الضعيف. وكان الأمان لذلك معدوماً[١٥٠]. وليس من المؤمّل لمجتمع بهذه الصفات أن يصبح قادراً على تنظيم الجيوشِ، وتأسيس الدولِ، وإدارة الحكمِ، وتحقيق الأمن والاستقرار. فلمّا عزم جنكيز خان على تأسيس دولته حرص على أن تضمّ الياسا كلّ ما يساعد على تحقيق الأمن والاستقرار بين المغول، لكي يصبحوا قادرين على توحيد طاقتهم وتوجيه جيوشهم وقوتهم نحو الغزو والفتح في الخارج.

تتجه العديد من بنود الياسا نحو تكوين نوعٍ من الأمن الاجتماعي بين المغول، بهدف القضاء على الظواهر التي لا تساعد على توفير الأمان في المجتمع[١٥١]، لذلك أكدت الياسا على "أنّ من زنى.. قُتِل ومن لاط قُتِل، ومن تعمَّد الكذب قُتِل ومن سحر قُتِل"[١٥٢]. كما أكدت على وجوب "قتل النمّام والكذاب"[١٥٣]. وهذه القواعد تساعد على التقليل من الخلافات بين المغول. وتكّوين قدر من الثقة في التعامل فيما بينهم.

كما اتجهت العديد من البنود نحو معالجة واقع حياة المغول في بيئتهم القاسية، لذلك حملت طابعاً بدوياً، يتفق وحياتهم القاسية التي كانوا يحيوّنها، حيث حرصت بعض البنود على تحقيق قدر من التكافل الاجتماعي للتخفيف من قسوة البيئة وما تتصف به من نقصٍ في الغذاءِ والماءِ. لذلك أكدت على أنّ "من بال في الماءِ قُتِل"[١٥٤]. وألزمت المغول "ألا يأكل أحدٌ من يد أحد حتى يأكل المناول منه أولاً، ولو أنّه أمير ومن يناوله أسير، وألزمهم ـ جنكيز خان ـ ألا يتخصص أحدٌ بأكل شيء وغيره يراه، بل يشركه معه في أكله، وألزمهم ألا يتميز أحدٌ منّهم بالشبع على أصحابه، ولا يتخطى أحدٌ ناراً ولا مائدة، ولا الطبق الذي يؤكل عليه، وأنّ من مرَّ بقومٍ وهم يأكلون فله أن ينزل ويأكل معهم من غير إذنهم وليس لأحدٍ منعه"[١٥٥]. ويبدو أن

هـذا البنـد متصـل تمامـاً بالمسـاواة بـين جميـع المغـول فـي الواجبـات، فالمسـاواة فـي العمـل الجماعي الذي فرضته الياسا تطلب أيضا مساواة في الغذاء. من هنا يبدو أنّ هذا البند مرتبط بالبند لذي يشير إلى أنّه "إذا حانت ساعةُ الحرب لم يترفعوا، ولم يأنف الشريف ولا الوضيع، فهم جميعاً يعدون أنّفسهم ضاربي سيوف، ورامي نبال، وطاعنين بالرماح، يستقبلون العدو بأي سلاح وقع تحت أيديهم، ولا يكلّون ولا يتعبون، المصلحة الحربية فوق كل اعتبار، والانتصار أولاً حتى وإنّ كانت آلة الحرب حبلاً..فإن اعترض معترضٌ منهم يوم توزيع السلاح آخذوه وأدبوه تأديباً عنيفاً"[١٥٦]. لذلك منعت الياسا الانفراد في الأكل دون المشاركة فيه لِمن يرغب في ذلك. وبموجب هذه المساواة في الوجبات لا ينبغي لأحد أنّ يتميز عن البقية في نوع الغذاء المتناول أو كميته[١٥٧]. وفي هذا الاتجاه أيضا يندرج البند الذي يشير إلى "أنّ الناس متساوون جميعا، لا فرق بينهم، ولا يشمخ احد بأنفه إن غدا ذا مقام، ولا يمتنع ولا يحتجب ولا يتلّقب بالألقاب الرفيعة"[١٥٨].

وثمة بنودٌ في الياسا ألزمت المغول بـ"ألا يدخل أحدٌ منهم يده في الماء ولكنه يتناول الماء بشيء يغترفه به، ومنعهم من غسل ثيابهم بل يلبسونها حتى تبلى، ومنع أن يقال لشيء أنه نجس، وقال جميع الأشياء طاهرة، ولم يفرق بين طاهر ونجس"[١٥٩]. وبالرّغم من أنّ هذه البنود تعني من الناحية العملية منع المسلمين الوضوء أو الاغتسال في الماء[١٦٠]، إلا أنّه من غير المؤكد أنها وضعت ضد المسلمين أصلاً، فهذه المسألة لها علاقة بالخطر المترتب عن إصابة الجسد بالماء أثناء العواصف الرعدية، مما يزيد من احتمال الإصابة بالصواعق، ولذلك كان المغول يخشون الرعد في بيئتهم، لما فيه من أذى على أرواحهم[١٦١]. فقد كان المغول يفزعون من الرعد والبرق، فعند قصف الرعد أو ظهور البرق، كانوا يقفون مرعوبين صامتين، وإذا اتفق أن أصابت صاعقة شخصا ولم يهلك، فان أفراد أسرته وقبيلته يطردونه على الفور، والغريب أنهم كانوا يتصورون انه إذا جلس شخص في الماء وقت الربيع أو الصيف، أو غسل يده في النهر، أو وضع الماء في أواني ذهبية أو فضية، أو ألقى بلباس مغسول في الصحراء، فانه ينتج عن هذا كله رعد وبرق كثير، وهو ما يخشاه المغول[١٦٢]. وهذه الظاهرة شائعة عند معظم الأقوام التركية منذ زمن بعيد، فقد لاحظ ابن فضلان (ت بعد ٣١٠هـ/٩٢٢م) أن الترك لم

يكونوا "يَسْتَنجْون من غائط ولا بول؛ ولا يغتسلون من جنابَةٍ ولا غيرِ ذلك. وليس بينهم وبين الماء عمل، خاصَّةً في الشّتاءِ"(١٦٣).

كما اشتملت بعض البنود على ضبط قواعد السلوك فيما بين القبائل، وذلك في الحالات التي قد يحدث فيها خلافٌ ومشاجراتٌ وبخاصة أيام الحروب، مثل أنّ من "دخل بين اثنين يتخاصمان فأعان اَحَدَهُما قُتِل"(١٦٤). وهذا البند فيه إيحاءٌ بوجوب الوقوف على الحياد في حالة نشوء نزاع بين الأفراد أو القبائل، ومثل هذا الأمر من شأنه أن لا يسمح بأتساع دائرة الصراع إلى القبائل الأخرى.

كما أكدت الياسا على أنّ "من أطعم أسير قوم أو كساه بغير إذنهم قُتِل، ومن وجد عبداً هارباً أو أسيراً قد هرب ولم يرده على من كان في يده قُتِل .. ومن وقع حمله أو قوسه أو شيء من متاعه، وهو يكرّ أو يفرّ في حال القتال، وكان وراءه أحد، فإنّه ينزل ويناول صاحبه ما سقط منّه، فإن لم ينزل ولم يناوله قُتِل"(١٦٥). ولا ريب في أنّ هذه البنود تشير إلى حالاتٍ كثيراً ما كانت تقع بين المغول، ونجم عنها الكثير من الخلافات والخصومات، فكان لها أثرها في تمزيق الوحدة بين المغول. فوجب على جنكيز خان ضبطها وتقنينها في قانونٍ ملزمٍ.

ويلاحظ على هذه القوانين الشّدة والقسوة، وعدم تناسب العقوبات فيها مع حجم (الذنب) المرتكب، إذ غالبا ما يكون العقاب بإعدام الشخص المخالف، الأمر الذي جعل كلمة الياسا تحيل إلى معنى القتل والموت(١٦٦). ربما كان ذلك لأنّ جنكيز خان أعتقد أنّه لا يمكن إخضاع المغول القبليين المتعطشين للدماء لقانون واحد يلتفون حوله، وينزلون جميعاً على حكمه. إلا إذا كانت موارد هذا القانون مشتملة على عقوبات فيها جدّ وصرامة، توقع على المخالفين في غير ما شفقة ولا رحمة، لأن هؤلاء الأتباع، بحسب رأي جنكيز خان، إنّ تُرِكوا وشأنهم يحيّون حياتهم القديمة، بغير ترهيب فإنهم يعودون إلى ما كانوا عليه من الفوضى، وقتل بعضهم البعض، والتطاحن من اجل الأسلاب والمراعي(١٦٧). ومع ذلك، وعلى الرغم من الحيف والجور الذي ميّز أحكام الياسا بما لا يتناسب وحجم (الجرم) المرتكب، إلا أنها ساهمت في ضبط الحياة الاجتماعية بين المغول.

لم يكن نجاح جنكيز خان في تأسيس دولته مرهوناً بتحقيق الوحدة السياسية بين قبائل المغول فحسب، ولا بتامين الأمن بين رعاياه فقط، فقد كانت مملكته تُخضِع تحت سيطرتها العديد من الشعوب من أصحاب الانتماءات الدينية والقومية المختلفة، وكان رجالات الإدارة بدورهم ينتمون إلى طوائف وعقائد عدة، ومن المُهم في مثل هذا الوضع أن يكون لجنكيز خان سياسةٌ دينيةٌ واضحةٌ، يستطيع من خلالها السيطرة وحكم هذه الشعوب المتباينة دينياً بشكل يضمن له خُضوعِها. ومن أجل الوصول إلى هذا الهدف فقد حرص جنكيز خان على أن تتجه الياسا في بعض بنودها نحو ضمان استقرار العلاقة بين المغول والشعوب الخاضعة، ولهذا فقد شرط على أتباعه من خلال الياسا "تعظيم جميع الملل من غير تعصّبٍ لملةٍ على أخرى، وجعل ذلك كلّه قربى إلى الله تعالى" كما ألزم المغول "ألا يتعصبوا لشيء من المذاهب"[١٦٨]، ومع أن جنكيز خان "لم يكن معتقداً بدين معين فإنه لم يتعصب لملة على ملة، تاركاً المرء وما يعتقد، في حين أن علماء كلّ أمةٍ مكرّمون معززون، ويعدون إكرامهم وسيلةً للتقرب إلى الله. وهم ينظرون إلى المسلمين نظرة توقير، ويعزون الرهبان وعبدة الأوثان. أما أولادهم فكانوا مخيّرين بالدين الذي ينتمون إليه. فبعضهم تقلّد شعائر الإسلام، وبعضهم سار سير النصارى، وطائفة عبدت الأوثان، كما ظلت فئةٌ تعتقد اعتقاد أجدادها القدماء فَلَمْ تَمِلْ إلى دين معين، ولكن الفئة الأخيرة كانت قليلة العدد. ولم تكن طائفةٌ تدخل في الدين وتتعصب له، بل تتقلده وتسير على تعاليمه"[١٦٩]. وربما لهذا السبب أصبح "جنكيز خان لا يتدين بشيء من أديان أهل الأرض"[١٧٠]. ولهذا كان المغول يستثنون أئمة المسلمين، ورجال الدين اليهود والنصارى والبوذيين من الضرائب، فضلا عن أصحاب الحرف والمهن[١٧١]. وهذا الموقف تجاه أتباع الأديان، الذي فرضته الياسا، أدى إلى اشتهار المغول بالتسامح الديني، ويرى بعض الباحثين أن ما جرى من تعليل ذلك التسامح بأنه يرجع إلى ما عرف عن المغول من عدم الاكتراث بالدين يعتبر حكما لا يستند إلى أساس متين، وان الراجح هو أن هذا التسامح لم يكن المقصود منه سوى الإفادة من الأشخاص الأكفاء مهما اختلفت أديانهم[١٧٢]. ومهما يكن من أمر فان هذه السياسة الدينية التي اتبعها المغول ساعدتهم على التقليل من مقاومة الشعوب المغلوبة، وامتصاص نقمتها، ولا ريب أن جنكيز خان كان على درايةٍ بالأثر الايجابي الذي سينجم عن

عدم التعرّض لأصحاب الديانات عند الشعوب المغلوبة، وأنّ ذلك سيسهم في إحكام سيطرة المغول عليها.

ومن المناسب الإشارة إلى ما أورده العمري من أنّ الياسا نصّت على أنّ "من ذبح كذبيحة المسلمين ذُبِح"(١٧٣). وهي إشارة لا تنسجم مع سياسة التسامح التي درج على إتباعها المغول. غير أنّ التدقيق في المصادر أظهر أن هذا البند من الياسا لم يكن مما وضعه جنكيز خان، ولم يكن متعارفا عليه من قبل، وأن هذا المنع كان إجراءاً مؤقتاً أتُخِذ بعد عهد جنكيز خان، وأنّه ناجمٌ عن أمر أصدره القا آن سرعان ما تراجع عنه، فقد أشار الهمذاني إلى أنّ جماعة من تجار المسلمين رفضوا أكلَ طعامٍ قدمه لهم قوبيلاي قا آن بن تولوي (٦٩٣.٦٥٨هـ/١٢٩٤.١٢٦٩م) تكريماً لهم، فلما سألهم عن السبب أجابوه بأن "هذا الطعام يعتبر ميتة في شريعتنا" فغضب القا آن "وأمر بألا يذبحَ المسلمون وأهل الكتاب الأغنام منذ هذه اللحظة. وإنما يشقون صدورها وأكتافها جريا على عادة المغول. وكل من يذبح غنما، يُذبح مثلها.." وقد استغِل هذا الإجراء بعض كبار رجالات الدولة من غير المسلمين، فعملوا على استفزاز المسلمين والوشاية بهم عند هذا القا آن(١٧٤). وقد أستمر الأمرُ على هذا الحال إلى أنَّ أُبلغ القا آن بأنّ "جميع التجار المسلمين قد نزحوا ..، ولم يعد يأتي التجار من بلاد المسلمين، وقد تضاءل الخراج .. وذلك لأنه قد مضت سبعُ سنوات دون أن يذبح المسلمون غنماً فإذا صدر الفرمان بإباحة الذبح .. فسوف يروح التجار ويحصل الخراج بأكمله" فأصدر القا آن المرسوم بخصوص هذا الموضوع، ويقضي بإباحة ذلك(١٧٥). وهذه الرواية تظهر بأنّ المنع كان لأسبابٍ وملابساتٍ محلية، وأنّه قد تم العمل به لمدة محدودة، وأنّه سرعان ما أدرك القا آن خطأ قراره فتراجع عنه بعد مدة.

ومن المهم الإشارة إلى حادثة تلّقي الضوء على ملابسات هذه المسالة بشكل أدقَّ، فقد أشار الهمذاني إلى أنّ "المغول قد أصدروا قانوناً بألا يذبح أيُّ شخصٍ الخرافَ والحيوانات الأخرى التي يؤكل لحمها، بل تُشقُّ صدورُها وأكتافها حسب عرفهم. فأشترى رجلٌ مسلمٌ خروفاً من السوق، وأخذه إلى البيت، وأوصد الأبواب، ثم سمى، وهّم بذبحه داخل البيت، واتفق أن رآه في السوق رجل من القپچاق فتعقبه، وصعد فوق السطح، وبمجرد أن رآه يضع السكين

على حلق الخروف، هبط من السطح، وقيّد ذلك المسلم، وسحبه إلى بلاط القا آن، فأرسل القا آن نوابه للتحقيق، فلما أطلعوه على ما حدث، قال: إن هذا الرجل الفقير قد احترم القانون، على حين أنّ هذا التركي خرق القانون، لأنه صعد فوق سطح منزله، وبهذا نجا المسلم، وقتل القپچاقي"[١٧٦]. وهذه الرواية تدل أيضاً على أنّ القانون إنما منع المسلمين من المجاهرة بذبح حيواناتهم.

الخاتمة

هذا البحث محاولة لتسليط الضوء على المضامين السياسية لقوانين الياسا، وأثرها في قيام إمبراطورية المغول. فعلى الرّغم مما عُرف عن المغول من قسوةٍ ووحشيةٍ ومجانبةٍ لسبل التقدم والرقي الحضاري، فلم يعدم نظامُ الحكمِ عندهم من أفكارٍ سياسيةٍ، اشتملتها قوانين الياسا، قامت عندهم مقام الدساتير الوضعية في الدول الحديثة. ومثلّت مرجعاً فكرياً لنشاطهم السياسي، فكان لها دورها في توجيه حياتهم السياسية. ويعود الفضلُ الأكبر في وضعِ هذه القوانين إلى جنكيز خان، الذي عبّر عن عبقريته في الإدارة والحكم في قوانين الياسا، التي عكست مجملَ أفكاره السياسية. وقد لعبت هذه القوانين دوراً فاعلاً في وضعِ أُسسِ إمبراطورية المغول، تمثّل ذلك بشكلٍ مباشرٍ في بناءِ جيشٍ قويٍّ ومنظّمٍ، وفي تحديد ملامح نظامِ الحكمِ والسلطةِ، كصلاحياتِ الحاكمِ، وأَوْجُهِ خَلْعِهِ، وطرقِ تداولِ السلطة، وعِلاقةِ الحاكمينَ بالمحكومين، وطبيعة العلاقات الدولية مع الدول المجاورة. كما كان للياسا اثرٌ في تحقيق الأمنِ والاستقرارِ بين المغولِ والشعوبِ الخاضعةِ لهم، إذ حددت أُسس السياسةِ الدينيةِ الواجب إتباعها، والتي ساعدت المغولَ على سياسة مختلف الشعوب ذات الانتماءاتِ العَقَديةِ المختلفة، مما كان له أبلغ الأثر في التخفيف من نقمة الشعوب الخاضعة لهم، وترك أثَرَهُ في إحكام سيطرتهم على الشعوب المغلوبة.

حواشي البحث

(١) الجويني، عطا ملك، تاريخ فاتح العالم جهانكشاي، ترجمه عن الفارسية: محمد التونجي (ط١، دار الملاح، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م) ٦١/١، ٧٣؛ أبن كثير، أبو الفدا إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية، باعتناء: عبد الرحمن اللذقي ومحمد غازي بيضون (ط١٠، بيروت، دار المعرفة، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م) ١٣٩،١٤١/١٣.

(٢) العمري، أبن فضل الله شهاب الدين أحمد بن يحيى، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق: كامل سلمان الجبوري (ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠١٠م)

٩٣/٣؛ المقريزي، تقي الدين احمد بن علي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، تحقيق: محمد زينهم ومديحة الشرقاوي (ط١، القاهرة، مكتبة مدبولي، ١٩٩٨م) ٨٣/٣، ٨٥؛ القلقشندى، احمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، شرح وتعليق: محمد حسين شمس الدين (ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٧م) ٣١٠/٤.

(٣) الصفدي، صلاح الدين خليل أيبك، كتاب الوافي بالوفيات، تحقيق واعتناء: أحمد الارنأووط وزكي مصطفى (ط١، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م) ١٥٣/١١؛ أبن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (القاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، ١٩٦٣م) ٦/ ٢٣٨، ١٨٣/٧؛ المقريزي، المواعظ والاعتبار: ٨٣/٣.

(٤) أبن بطوطة، محمد بن إبراهيم اللواتي، رحلة أبن بطوطة، شرحها: طلال حرب (ط٤، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م) ص٣٨٧.

(٥) أبن كثير، أبو الفدا إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم (ط٢، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م) ٦٧/٢.

(٦) أبن كثير، البداية والنهاية: ١٣٨/١٣.

(٧) الصياد: فؤاد عبد المعطي، المغول في التاريخ (بيروت، دار النهضة العربية، دت) ص٣٣٨.

8) (Bosworth. C. E, The Encyclopaedia Of Islam, "Yāsā" part Xl, p293.

(٩) تاريخ فاتح العالم: ٦٣/١، أبن بطوطة.

(١٠) تفسير القرآن العظيم: ٦٧/٢. وعن اثر اليهودية في قوانين الياسا يراجع بحث

Reuven Amital, Did Chinggis Khān have a Jewish teacher? Journal of the American Oriental Society. Vol. 124. No. 4 (Oct.- dec, 2004) pp. 691- 705.

(١١) صبح الأعشى: ٣١٠/٤.

(١٢) النجوم الزاهرة: ١٨٣/٧.

13) Ayalon, David, The Great Yāsā of Chingiz Khān. A Reexamination, Studia Islamica, NO.33, 1971: part c2, 117.

14) Paul D, Buell, historical Dictionary of the Mongol World Empire (the Scarecrow Press, Inc. Lanham, Maryland, and Oxford) 2003, p170.

15) Bosworth. C. E, The Encyclopaedia Of Islam, "Yāsā" part Xl, p293.

(١٦) الصياد: المغول في التاريخ: ص٣٣٨؛ العريني، السيد الباز، المغول (بيروت، دار النهضة العربية، ١٤٠٦هـ/ ١٩٧٤م) ص٥٩.

(١٧) تاريخ فاتح العالم: ٦١/١.

(١٨) الصياد: المغول في التاريخ: ص٣٣٨؛ العريني، المغول: ص٥٩.

(١٩) العمري، مسالك الأبصار: ٩٦/٣.

(٢٠) الجويني، تاريخ فاتح العالم: ٦٢/١.

21) Veranadsky, George, The scope and contents of Ghingis Khān's Yāsā Harvard Journal of Asiatic Studies, Vol 3, No3-4 (Dec, 1938) p339.

الصياد، المغول في التاريخ: ص٣٣٩.

Morgan, D.O, The 'Great "Yāsā" of Chingiz Khān' and Mongol Law in the Īlkhānate, Bulletin of the School of Oriental and African Studies, University of London, Vol. 49,No. 1, In Honour of Ann K. S. Lambton (1986) : p163, 165.

(*) الخط الأويغوري: وهو أول خط غير اورخونى انتشر بين الاتراك وكان هذا الخط منتشر بين الصغد الإيرانيون، ولكنهم لمّا اسلموا نبذوا تلك الكتابة القومية واستعملوا الحروف العربية، وفي الوقت نفسه حافظ الاويغور على الكتابة التي انتقلت من الصغد إلى الترك وتعرف هذه الكتابة عند العلماء باسم الكتابة الاويغورية. ومن المعروف أن الأتراك واصلوا استعمال هذه الكتابة بعد دخولهم في الإسلام ولم يتركوها بسهولة، وفي نفس الوقت نشر الاويغور هذه الأبجدية في منغوليا ثم جاء بها المغول ثانية إلى الغرب. ينظر: بارتولد، تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ترجمة: احمد السعيد سليمان (القاهرة، الهيئة

المصرية العامة، ١٩٩٦م) ص٦٥. وقد كان من المألوف عند جنكيز خان الاستعانة بالخبرات والتقنيات الموجودة عند الأمم المغلوبة لدعم دولته ينظر:

Josef W. Meri, Medieval Islamic Civilization An Encyclopedia (Rout ledge, New York London, 2006) part 1, p281.

(٢٢) الجويني، تاريخ فاتح العالم: ٦٢/١.

(٢٣) الصياد: المغول في التاريخ: ص٣٣٨.

(٢٤) بارتولد، ڤاسيلى ڤلاديمير وڤتش، تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، ترجمة: صلاح الدين عثمان هاشم (ط١، الكويت، قسم التراث العربي، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م) ص١١٤.

25) Morgan, The Great Yāsā of Chingiz Khān, P 163.

(٢٦) تاريخ فاتح العالم: ٦١/١.

(٢٧) تاريخ فاتح العالم: ٧٢/١، ٧٩، ٨٩، ١٧٧، ١٩١، ٢٢٢، ٢٣٢، ٢٤٨.

(٢٨) تاريخ فاتح العالم: ٦٨/١.

(٢٩) مسالك الأبصار: ٩٦/٣، ٩٤، ١٠٠.

(٣٠) هو الأمير اوتامش سيف الدين الأشرفي، احد مماليك الأشرف خليل، دخل في خدمة السلطان العادل كتبغا ثم الناصر محمد، وتدرج في المناصب حتى أصبح من كبار الأمراء، تولى نيابة صفد قبل وفاته. الصفدي، الوافي بالوفيات: ٢٤٩/٩؛ ابن حجر، شهاب الدين احمد بن علي لعسقلاني، الدرر الكامنة في اعيان المائة الثمانية (بيروت، دار الجيل، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م) ١/ ٤٢٣.

(٣١) هو الأمير سيف الدين المعروف بالحاج ارقطاي، احد مماليك الأشرف خليل، تولى مناصب عدة مثل نيابة حمص وصفد وحلب ودمشق. الصفدي، الوافي بالوفيات: ٢٣٢/٨؛ ابن حجر، الدرر الكامنة: ٣٥٤/١.

(٣٢) الصفدي، الوافي بالوفيات: ٢٣٣/٨.

(٣٣) الصفدي، الوافي بالوفيات: ٢٤٩/٩.

(٣٤) هو احمد بن إبراهيم بن عيسى الشهاب بن البرهان القرشي، ولي القضاء في القصير من أعمال دمشق وصفد مراراً. السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (بيروت، منشورات دار مكتبة الحياة، دت) ١٩٨/١.

(٣٥) المواعظ والاعتبار: ٨٣/٣.

36) Ayalon, David, The Great Yāsā of Chingiz Khān. A Reexamination, Studia Islamica, NO.33, 1971: part A, p102-103.

37) Ayalon, The Great Yāsā of Chingiz Khān, part A, p130

(٣٨) الجويني، تاريخ فاتح العالم: ٦٢/١.

(٣٩) العريني، المغول: ص٦٠.

(٤٠) العريني، المغول: ص٦٠؛ الصياد: المغول في التاريخ: ص٣٣٩.

(٤١) العريني، المغول: ص٦٠.

42) Vernadsky,The scope and contents of Chingis Khān's Yāsā : p339.

كيتشانوف، ي.أ، حياة تيموتشجين (جنكيز خان) ترجمة: طلحة الطيب (دبي، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م) ص٢٢٢.

43) The scope and contents of Chingis Khān's Yāsā : p339. Vernadsky,

(٤٤) تاريخ فاتح العالم: ٦١/١.

(٤٥) الجويني، تاريخ فاتح العالم: ٧٢/١؛ ابن العبري، غريغوريوس أبي الفرج، تاريخ مختصر الدول، تصحيح: الأب انطون صالحاني اليسوعي (ط٢، بيروت، دار الرائد اللبناني، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م) ص٣٩٥؛ العمري، مسالك الأبصار: ١٠٠/٣.

(٤٦) الجويني، تاريخ فاتح العالم: ٦٠/١.

(٤٧) الصياد، المغول في التاريخ: ص٣٥.

(٤٨) الصياد، المغول في التاريخ: ص٣٤٠.

(٤٩) العمري، مسالك الأبصار: ٩٧/٣.

(٥٠) المقريزي، المواعظ والاعتبار: ٨٤/٣.

(٥١) المقريزي، المواعظ والاعتبار: ٣/٨٤.

(*) كانت قبائل التتار مستقلة عن المغول، وكانت تجمع بينهما عداوة شديدة، ومن الغريب انه بعد انتصار جنكيز خان على التتار أطلق اسمهم عليه وعلى اتباعه. الصياد، المغول في التاريخ: ص٢٧.

(٥٢) العريني، المغول: ص٤١.

(٥٣) العريني، المغول: ص٥٠.

(٥٤) المقريزي، المواعظ والاعتبار: ٣/٨٤.

(**) التومان: هو الأمير المسئول عن عشرة آلاف من الجند. الجويني، تاريخ فاتح العالم: ١/٦٦.

(٥٥) الجويني، تاريخ فاتح العالم: ١/٦٧.

(٥٦) كيتشانوف، حياة تيموتشجين: ص٢١٧.

(٥٧) الجويني، تاريخ فاتح العالم: ١/٦٨.

(٥٨) لام، جنكيزخان وجحافل المغول: ص٧٣، ١٢١.

(٥٩) العمري، مسالك الأبصار: ٣/٩٩؛ المقريزي، المواعظ والاعتبار: ٣/٨٤.

60) (Meri, Medieval Islamic Civilization An Encyclopedia, part 1, p281.

(٦١) تاريخ فاتح العالم: ١/٦٥.

62) (Meri, Medieval Islamic Civilization An Encyclopedia, part 1, p512.

(٦٣) المواعظ والاعتبار: ٣/٨٤.

(٦٤) العمري، مسالك الأبصار: ٣/٩٩؛ المقريزي، المواعظ والاعتبار: ٣/٨٤.

(٦٥) الجويني، تاريخ فاتح العالم: ١/٦٦.

(٦٦) كيتشانوف، حياة تيموتشجين: ص٢١٢.

67) (Meri, Medieval Islamic Civilization An Encyclopedia, part 1, p281.

(٦٨) كيتشانوف، حياة تيموتشجين: ص٢١٢.

(٦٩) الجويني، تاريخ فاتح العالم: ٦٥/١.

(٧٠) العريني، المغول: ص٥٦.

(٧١) الجويني، تاريخ فاتح العالم: ٦٣/١.

(٧٢) الجويني، تاريخ فاتح العالم: ٦٣/١.

(٧٣) العريني، المغول: ص٥٧.

(٧٤) لام، جنكيزخان وجحافل المغول: ص٥٤.

75) **The scope and contents of Chingis Khān's Yāsā : p351. Vernadsky,**

(٧٦) عكاشة، ثروت، إعصار من الشرق "جنكيز خان" (ط٥، القاهرة، دار الشروق، ١٩٩٢م) ص٩٨.

(٧٧) الجويني، تاريخ فاتح العالم: ٦٧/١؛ القلقشندى، صبح الأعشى: ٣١٢/٤.

(٧٨) كيتشانوف، حياة تيموتشجين: ص٢٠٩.

(٧٩) كيتشانوف، حياة تيموتشجين: ص٢١٠.

(٨٠) الجويني، تاريخ فاتح العالم: ٢٠/١ من مقدمة التحقيق.

(٨١) بارتولد، شيولر: العالم الإسلامي في العصر المغولي، ترجمة: خالد اسعد عيسى (ط١، دمشق، دار إحسان، ١٩٨٢م) ص٢٦.

(٨٢) الجويني، تاريخ فاتح العالم: ٧١/١؛ أبن العبري، تاريخ مختصر الدول: ص٣٩٤.

(٨٣) كيتشانوف، حياة تيموتشجين: ص٣٨٠.

(٨٤) لام، جنكيزخان وجحافل المغول: ص ٤٣.

(٨٥) كيتشانوف، حياة تيموتشجين: ص٢١٩.

(٨٦) كيتشانوف، حياة تيموتشجين: ص٣٦٧.

(٨٧) الصياد، المغول في التاريخ: ص١٤٣.

(٨٨) الهمذاني، رشيد الدين فضل الله، جامع التواريخ تاريخ خلفاء جنگيز خان، ترجمه عن الفارسية: فؤاد عبد المعطي الصياد، مراجعة وتقديم: يحيى الخشاب (ط١، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٨٣م) ص٢١.

(٨٩) الجويني، تاريخ فاتح العالم: ٦٦/١.

(٩٠) الجويني، تاريخ فاتح العالم: ١٩٢/١.

(٩١) الجويني، تاريخ فاتح العالم: ٧٧/١.

(٩٢) القلقشندى، صبح الأعشى: ٣١٢/٤.

(٩٣) الجويني، تاريخ فاتح العالم: ٦٣/١؛ العمري، مسالك الأبصار: ٩٨/٣.

94) The scope and contents of Chingis Khān's Yāsā : p346. Vernadsky,

95) Holt .p .m, The Cambridge History of Islam (Cambridge University Press, 2008) p498.

(٩٦) المقريزي، المواعظ والاعتبار: ٨٥/٣.

(٩٧) المقريزي، المواعظ والاعتبار: ٨٣/٣.

(٩٨) أبن بطوطة، رحلة ابن بطوطة: ص٣٨٧.

(٩٩) الصفدي، الوافي بالوفيات: ١٥٣/١١.

(١٠٠) الجويني، تاريخ فاتح العالم: ٧٢/١.

(١٠١) رحلة أبن بطوطة: ص٣٧٨.

(١٠٢) الهمذاني، جامع التواريخ: ص٥٢.

103) The scope and contents of Chingis Khān's Yāsā : p346. Vernadsky,

104) The scope and contents of Chingis Khān's Yāsā : p347. Vernadsky,

(١٠٥) الجويني، تاريخ فاتح العالم: ١٧٤.١٧٣/١. وينظر ايضا؛ أبن العبري، تاريخ مختصر الدول: ص٤٢٦؛ الهمذاني، جامع التواريخ: ص١٧.

(١٠٦) الهمذاني، جامع التواريخ: ص١٦.

(١٠٧) الجويني، تاريخ فاتح العالم: ١/١٧٥.

(١٠٨) الجويني، تاريخ فاتح العالم: ١/٢٣٢.

(١٠٩) الجويني، تاريخ فاتح العالم: ١/٧٢؛ أبن العبري، تاريخ مختصر الدول: ص٣٩٥.

(١١٠) الجويني، تاريخ فاتح العالم: ١/٧٢؛ أبن العبري، تاريخ مختصر الدول: ص٣٩٥.

(١١١) الجويني، تاريخ فاتح العالم: ٢/١٨٥؛ الهمذاني، جامع التواريخ: ١٩٩.

(١١٢) أبن العبري، تاريخ مختصر الدول: ص٤٢٨.

113) (Ayalon, The Great Yāsā of Chingiz Khān, part A, p134.

(١١٤) العريني، المغول: ص١٥٩.

(١١٥) أبن العبري، تاريخ مختصر الدول: ص٤٢٧ . ٤٢٨.

(١١٦) الهمذاني، جامع التواريخ: ص٢٩؛ أبن العبري، تاريخ مختصر الدول: ص٤٢٧.

(١١٧) الهمذاني، جامع التواريخ: ص٣٠.٢٩.

(١١٨) الجويني، تاريخ فاتح العالم: ١/٢٣٢.

(١١٩) الهمذاني، جامع التواريخ: ص٣٠.٢٩.

(١٢٠) أبن العبري، تاريخ مختصر الدول: ص٤٣١.

(١٢١) الجويني، تاريخ فاتح العالم: ١/١٧٨.

(١٢٢) الجويني، تاريخ فاتح العالم: ١/١٧٨؛ ٢٣٢.

(١٢٣) الجويني، تاريخ فاتح العالم: ١/١٨٠.

(١٢٤) الجويني، تاريخ فاتح العالم: ١/٧١؛ أبن العبري، تاريخ مختصر الدول: ص٣٩٤.

(١٢٥) أبن العبري، تاريخ مختصر الدول: ص٣٩٥.

(١٢٦) العريني، المغول: ص٦٣.

127) Vernadsky, The scope and contents of Chingis Khān's Yāsā, p339.
David Abulafia, The new Cambridge Medieval History, Cambridge University Press, 2008, volume V, p704.

128) Vernadsky, The scope and contents of Chingis Khān's Yāsā, p339.

129) Vernadsky,The scope and contents of Chingis Khān's Yāsā : p339. كيتشانوف، حياة تيموتشجين: ص٢٢٢.

130) The scope and contents of Chingis Khān's Yāsā : p339. Vernadsky,

131) (Abulafia, The new Cambridge Medieval History, V. V, p704.

(١٣٢) كيتشانوف، حياة تيموتشجين: ص٢١٩.

(١٣٣) الصياد، المغول في التاريخ: ص١٤٣.

Josef, Medieval Islamic Civilization An Encyclopedia, part1, p281.

134) (David Abulafia, The new Cambridge Medieval History, Cambridge University Press, 2088, volume V, p704.

(١٣٥) أبن الأثير، أبو الحسن على بن أبي الكرم محمد بن محمد الشيباني، الكامل في التاريخ، مراجعة الدكتور محمد يوسف الدقاق (ط٤، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣م.١٤٢٤هـ) ١٠/٤٥٣.

(١٣٦) الجويني، تاريخ فاتح العالم: ٩٩/١.

(١٣٧) النسوي، محمد بن احمد، سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، نشر وتحقيق: حافظ احمد حمدي (القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٥٣) ص٨٣.

(١٣٨) عمران، محمود سعيد، المغول وأوربا (القاهرة، دار المعرفة الجامعية) ص٢١٨، ٢٢٧.

(١٣٩) العريني، المغول: ص١٨٩.

(١٤٠) الجويني، تاريخ فاتح العالم: ٦١/١.

(١٤١) الجويني، تاريخ فاتح العالم: ٦٢/١.

(١٤٢) الجويني، تاريخ فاتح العالم: ٦٢/١.

(١٤٣) الجويني، تاريخ فاتح العالم: ٦٢/١، ٧١، ١١٣، ١١٤.

144) The scope and contents of Chingis Khān's Yāsā : p344. Vernadsky,

كيتشانوف، حياة تيموتشجين: ص٣٦٥.

(١٤٥) لام، جنكيزخان وجحافل المغول: ص١٠٥.

(١٤٦) لام، جنكيزخان وجحافل المغول: ص١١٤.

(١٤٧) كيتشانوف، حياة تيموتشجين: ص٣٦٨.

(١٤٨) العريني، المغول: ص١٤٦.

(١٤٩) الجويني، تاريخ فاتح العالم: ٦٠/١.

(١٥٠) الصياد: المغول في التاريخ: ص٣٣٩.

151) The scope and contents of Chingis Khān's Yāsā : p354. Vernadsky,

(١٥٢) العمري، مسالك الأبصار: ٩٧/٣؛ المقريزي، المواعظ والاعتبار: ٨٣/٣.

(١٥٣) الهمذاني، جامع التواريخ: ص٧٠.

(١٥٤) العمري، مسالك الأبصار: ٩٧/٣.

(١٥٥) المقريزي، المواعظ والاعتبار: ٣/ ٨٣. ٨٤.

(١٥٦) الجويني، تاريخ فاتح العالم: ٦٥/١.

157) The scope and contents of Chingis Khān's Yāsā : p348. Vernadsky,

(١٥٨) الجويني، تاريخ فاتح العالم: ٦٣/١.

(١٥٩) المقريزي، المواعظ والاعتبار: ٣/ ٨٣. ٨٤.

160) Ayalon, The Great Yāsā of Chingiz Khān, part A, p107.

161) The scope and contents of Chingis Khān's Yāsā : p352 Vernadsky,
Ayalon, The Great Yāsā of Chingiz Khān, part A, p107.

(١٦٢) الصياد، المغول في التاريخ: ٣٥٤.

(١٦٣) احمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حمّاد، رسالة ابن فضلان، تحقيق: سامي الدهان (دمشق، المطبعة الهاشمية، ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م) ص٩٢.

(١٦٤) العمري، مسالك الأبصار: ٩٧/٣؛ المقريزي، المواعظ والاعتبار: ٨٣/٣.

(١٦٥) المقريزي، المواعظ والاعتبار: ٨٣/٣.

(١٦٦) الصياد: المغول في التاريخ: ص٣٣٨.

(١٦٧) الصياد: المغول في التاريخ: ص٣٣٩؛ العريني، المغول: ص٦٠.

(١٦٨) المقريزي، المواعظ والاعتبار: ٣/٨٤.

(١٦٩) الجويني، تاريخ فاتح العالم: ١/٦٢.

(١٧٠) المقريزي، المواعظ والاعتبار: ٣/٨٣.

(١٧١) العمري، مسالك الأبصار: ٣/٩٧؛

Ayalon, The Great Yāsā of Chingiz Khān part A, p107 .
Abulafia, The new Cambridge Medieval History, V, p704.

(١٧٢) العريني، المغول: ص٢٦.

(١٧٣) العمري، مسالك الأبصار: ٣/٩٧؛ وانظر أيضا: المقريزي، المواعظ والاعتبار ٣/٨٣.

(١٧٤) الهمذاني، جامع التواريخ: ص٢٨٩.

(١٧٥) الهمذاني، جامع التواريخ: ص٢٩٠.

(١٧٦) الهمذاني، جامع التواريخ: ص٧٤.

قائمة مصادر ومراجع البحث

اولا: المصادر الاولية:

أبن الأثير، أبو الحسن على بن أبي الكرم محمد بن محمد الشيباني (٦٣٠هـ/١٢٣٢م)

* الكامل في التاريخ، مراجعة الدكتور محمد يوسف الدقاق (ط٤، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣م.١٤٢٤هـ)

أبن بطوطة، محمد بن إبراهيم اللواتي (٧٧٩هـ/١٣٧٧م)

* رحلة أبن بطوطة، شرحها: طلال حرب (ط٤، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م)

أبن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (٨٧٤هـ/١٤٦٩م)

* النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (القاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، ١٩٦٣م)

الجويني، عطا ملك (٦٨١هـ/١٢٨٢م)
* تاريخ فاتح العالم جهانكشاي، ترجمه عن الفارسية: محمد التونجي (ط١، دار الملاح، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م)
ابن حجر، شهاب الدين احمد بن علي لعسقلاني (٨٥٢هـ/١٤٤٨م)
* الدرر الكامنة في اعيان المائة الثمانية (بيروت، دار الجيل، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م)
السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (٩٠٢هـ/١٤٩٦م)
* الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (بيروت، منشورات دار مكتبة الحياة، دت)
الصفدي، صلاح الدين خليل أيبك (٧٦٤هـ/١٣٦٢م)
*كتاب الوافي بالوفيات، تحقيق واعتناء: أحمد الارنأووط وزكي مصطفى (ط١، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م)
ابن العبري، غريغوريوس أبي الفرج (٦٨٥هـ/١٢٨٦م)
* تاريخ مختصر الدول، تصحيح: الأب انطون صالحاني اليسوعي (ط٢، بيروت، دار الرائد اللبناني، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م)
العمري، أبن فضل الله شهاب الدين أحمد بن يحيى (٧٤٩هـ/١٣٤٨م)
* مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق: كامل سلمان الجبوري (ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠١٠م)
احمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حمّاد (ت بعد سنة ٣١٠هـ/ ٩٢٢م)
* رسالة ابن فضلان، تحقيق: سامي الدهان (دمشق، المطبعة الهاشمية، ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م)
القلقشندى، احمد بن علي (٨٢١هـ/١٤١٨م)

* صبح الأعشى في صناعة الإنشا، شرح وتعليق: محمد حسين شمس الدين (ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٧م)

أبن كثير، أبو الفدا إسماعيل بن عمر (٧٧٤هـ/١٣٧٢م)

* البداية والنهاية، باعتناء: عبد الرحمن اللذقي ومحمد غازي بيضون (ط١٠، بيروت، دار المعرفة، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م)

* تفسير القرآن العظيم (ط٢، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م)

المقريزي، تقي الدين احمد بن علي (٨٤٥هـ/١٤٤١م)

* المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، تحقيق: محمد زينهم ومديحة الشرقاوي (ط١، القاهرة، مكتبة مدبولي، ١٩٩٨م)

النسوي، محمد بن احمد (٦٣٩هـ/١٢٤١م)

* سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، نشر وتحقيق: حافظ احمد حمدي (القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٥٣)

الهمذاني، رشيد الدين فضل الله (٧١٨هـ/١٣٨١م)

* جامع التواريخ تاريخ خلفاء جنگيز خان، ترجمه عن الفارسية: فؤاد عبد المعطي الصياد، مراجعة وتقديم: يحيى الخشاب (ط١، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٨٣م)

ثانياً: المراجع العربية والمعربة

بارتولد، ڤاسيلى ڤلاديمير وڤتش

* تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ترجمة: احمد السعيد سليمان (القاهرة، الهيئة المصرية العامة، ١٩٩٦م)

* تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، ترجمة: صلاح الدين عثمان هاشم (ط١، الكويت، قسم التراث العربي، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م)

* العالم الإسلامي في العصر المغولي، ترجمة: خالد اسعد عيسى (ط١، دمشق، دار إحسان، ١٩٨٢م)

الصياد: فؤاد عبد المعطي

* المغول في التاريخ (بيروت، دار النهضة العربية، دت)

عكاشة، ثروت

* إعصار من الشرق "جنكيز خان" (ط٥، القاهرة، دار الشروق، ١٩٩٢م)

العريني، السيد الباز

* المغول (بيروت، دار النهضة العربية، ١٤٠٦هـ/ ١٩٧٤م)

عمران، محمود سعيد

* المغول وأوربا (القاهرة، دار المعرفة الجامعية، دت) .

كيتشانوف، ي.أ،

* حياة تيموتشجين (جنكيز خان) ترجمة: طلحة الطيب (دبي، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م)

لام، هارولد

* جنكيز خان وجحافل المغول، ترجم: متري امين (القاهرة، ١٩٦٢م)

ثالثا: المراجع الاجنبية

* Abulafia, David, The New Cambridge Medieval History, Cambridge University Press, 2008.
* Amital,Reuven, Did Ghinggis Khān have a Jewish teacher? Journal of the American Oriental Society. Vol. 124. No. 4 (Oct.-dec, 2004)
* Ayalon, David, The Great Yāsā of Chingiz Khān. A Reexamination, Studia Islamica, NO.33, 1971: part, A.B.C1. C2.
* Bosworth. C. E, The Encyclopaedia Of Islam, "Yāsā" part X1 *

* Holt .p .m, The Cambridge History of Islam (Cambridge University Press, 2008)
* Josef W. Meri, Medieval Islamic Civilization An Encyclopedia (Rout ledge, New York London, 2006)
* Morgan, D.O, The 'Great "Yāsā" of Chingiz Khān' and Mongol Law in the Īlkhānate, Bulletin of the School of Oriental and African Studies, University of London, Vol. 49,No. 1, In Honour of Ann K. S. Lambton (1986)
:* Paul D, Buell, historical Dictionary of the Mongol World Empire (the Scarecrow Press, Inc. Lanham, Maryland, and Oxford, 2003)
* Veranadsky, George, The scope and contents of Ghingis Khān's Yāsā Harvard Journal of Asiatic Studies, Vol 3, No3-4 (Dec, 1938).

ABSTRACT

The present work is an attempt to give a clear image of the political implications of the great yāsā, and their impact on building the Mongols' empire. The Mongol's governing system doesn't lack political thoughts. Though notorious for being ruthless, inhumane and barbaric, the yāsā laws were, for the Mongol's, like the laws of modern states; they are the ideological foundation for their political activity. The favor of applying these laws is due to Chingiz Khān who reveals in yāsā his creativity in management and governing. These laws have played a crucial role in building the Mongols' empire, they contributed to building a strong and organized army, shaping out the governing system, specifying the rulers, powers, dethroning manner, authority circulation, relation with their subjects, and neighboring states. The yāsā ,laws were also crucial in imposing order and stability among the Mongols and the peoples subjected to them. They specified the bases of the religious policy

which helped the Mongols running a multi-religion state, absorbing people's scorn and overcoming people.